نظم التعليم

(١) كتاب واحد

يقول : لا ينبغى أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذى أكب على التعلم منه بحسب طاقته ، وعلى نسبة قبوله للتعليم ، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره ، ويحصل أغراضه ، لأن المتعلم إذا نال قدرا من العلم نشط فى طلب المزيد ، حتى يستولى على غايته ، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال ، وانطمس فكره ، ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم [١] .

تعليق

هذا رأى لا نقر علامتنا عليه ، إلا إذا كان غرضه أن ينحى باللوم على ما رآه فى معلمى زمانه من إعنات المتعلمين باستيعاب كتب عدة فى العلم الواحد ، مع اختلاف الآراء وتباين المصطلحات ، لأن هذا مع البادئين إعجاز وإملال . وقد ذكر فى موضع آخر أن متعلم الفقه على المذهب المالكى كان يقرأ كتاب المدونة وما كتب عليها من الشروح الفقهية ، مثل كتاب ابن يونس واللخمى وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على

---

[١] المقدمة ٤٧٢

العتبية ، وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه . ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية ، وطرق المتأخرين عنهم والإحاطة بذلك كله ، وحينئذ يسلم له منصب الفتيا ، وهى كلها متكررة ، والمعنى واحد ، والمتعلم مطالب باستحضار جميعها ، وتمييز ما بينها ، والعمر ينقضى فى واحد منها [١] . ثم يمثل لطريقة تعليم اللغة بأن المتعلم يطالب بكتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه ، وطرق البصريين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب فى ذلك [٢] . إذا كان الاكتفاء بكتاب واحد فى كل علم طريقة صحيحة مع المبتدئين فإن تعدد المراجع مع الكبار خير عون لهم على الفهم والتعمق والموازنة والبصر بنواحى الموضوع .

(٢) علم واحد

تأثر ابن خلدون بالزرنوجى والغزالى فى تقرير علم واحد يدرسه التلميذ حتى يفتوى [٣] ، فيشرع يدرس غيره ، فقال « ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة فى التعليم ألا يخلط على المتعلم علمين معا ، فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما ، لما فيه من تقسيم البال ، وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر ، فيستغلقان ويستعصيان ، ويعود منهما بالخيبة [٤]

تعليق

هذا الرأى يحتم على المعلم أن يلتزم علما واحداً لا يشذ عن حدوده ، مع أن العلوم تتداخل وتتعاون .

ولقد يتعذر تفهيم موضوع فى علم بغير استعانة بعلم آخر ، لأن كثيراً

---

(١) المقدمة ٤٧٠ (٢) المقدمة ٤٧٠ (٣) الإحياء ١/٤٦ (٤) المقدمة ٤٧٢

من الحقائق متصل بعضها ببعض اتصالا وثيقا بحيث لا يمكن تدريس العلم منعزلا . فنحن مثلا لا نستطيع تدريس التاريخ منعزلا عن الجغرافيا والاقتصاد والاجتماع ، ولا نستطيع دراسة الأدب مجرداً من البلاغة والقواعد والتاريخ والجغرافيا الخ ثم إن المعارف كلها وشجت بينها وبين غيرها صلات قوية سهل حفظها ورسخت فى الذهن ، وأسرعت إلى الذاكرة عند الحاجة . على أن العقل ينهج فى تفكيره طريقا خاصا هو الربط بين الحقائق المتناظرة ، وفصل العلوم بعضها عن بعض ، ودراسة كل منها منعزلا عن غيره مخالفة للعقل فى سيره الطبيعى .

ثم إن العلوم كلها فروع مشتبكة من دوحة المعرفة . عزلت لتسهيل الدراسة وحصر المتشابه المتماثل فى دائرة معينة ، والخروج بالمتعلم من علم إلى آخر يسليه ويجدد نشاطه وقواه ، ويفسح مداركه وآفاقه ، ويحبب الدرس إليه .

على أن بعض المربين المحدثين رأى أن تركز العلوم حول علم واحد ، مؤسسين رأيهم على نظرية هربارت الألمانى فى العقل ، فاتخذ بعضهم الجغرافيا أساسا ، وتخير بعضهم التاريخ محوراً ، وآثر الإنجليز أن تكون رواية روبنصن كروزو مدارا ، وأقام الأمريكيون التاريخ قاعدة ، وابتكر بعض المحدثين طريقة المشروع ، وما ذلك إلا لربط المعارف والتمشى مع العقل فى إدراكه .

(٣) التوسع والإجمال

١ — قسم ابن خلدون العلوم إلى قسمين : قسم طبيعى يهدى إليه الإنسان بفكره ، وقسم نقلى يأخذه عمن وضعه . الأول هو العلوم الحكمية الفلسفية

وهى التى يمكن أن يعرفها الإنسان من تلقاء نفسه ، ويهتدى إليها بمداركه ، والثانى هو العلوم النقلية الوضعية المستندة إلى الشرع ، وليس للعقل مجال فيها إلا أن يلحق الفروع بالأصول .

والعلوم الشرعية أصلها الكتاب والسنة ، وما يتعلق بهما من التفسير والقراءات والأصول والكلام ، ولها علوم تساعد على فهمها هى علوم اللسان من لغة ونحو وصرف وأدب وبيان ، وهذه هى العلوم الآلية (١) .

أما العلوم العقلية فهى المنطق والطبيعيات والإلهيات والتعاليم (الهندسة الارتماطيقى ، الموسيقى ، الهيئة) . ولكل من هذه العلوم فروع ، فمن فروع الطبيعيات الطب ، ومن فروع علم العدد الحساب والفرائض والمعاملات . . . (٢) . والمنطق من العلوم العقلية كالنحو مثلا من العلوم النقلية وسيلة إلى صحة التفكير .

٢ — ورأى أن العلوم الغائية وهى العلوم المقصودة من شرعية وفلسفية جديرة بالتوسع وتفريع المسائل واستكشاف الأدلة ؛ لأن ذلك يزيد طالبها تمكنا ، ويوضح معانيها المقصودة .

أما العلوم الآلية من لسانية ومنطق ، فهى وسائل إلى غيرها ، فلا ينبغى التوسع فيها ولا التفريع ، لأن الاتساع فيها يخرجها عن وظيفتها ، ويزاحم العلوم المقصودة . ثم إنها طويلة وكثيرة الفروع والحصول على ملكة فيها صعب ، فالتوسع فيها لغو .

وهو يندد بالذين بسطوا النحو والمنطق وأصول الفقه ، وضيعوا العمر ،

---

(١) المقدمة ٣٦٤ (٢) المقدمة ١ .

وشغلوا عقولهم بما لا يعنيهم . حتى صيروا العلوم الوسائل مقاصد ، وربما تقع فيها أنظار لا حاجة إليها فى العلوم المقصودة فهى نوع من اللغو ، وهى أيضا مضرة بالمتعلمين ، لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها ، فإذا قطعوا العمر فى تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد ؟ »[1]

تعليق

١ — تقسيم ابن خلدون للعلوم إلى عقلية ونقليه يشبه تقسيم الباقلانى لها إلى علم ضرورة وعلم نظر واستدلال [2]

٢ — ورأيه فى الاكتفاء بالضروى من العلوم الوسائل جدير بأن يقدر ويطاع ، لأن بعض الطلاب مازالوا يصرفون جهودهم فى التوسع فى العلوم الوسائل ، ويتخرجون ورءوسهم مليئة بالفروض الخيالية فى الفقه ، والمماحكات اللفظية فى النحو ، والقضايا الملتوية فى الأصول ، ثم هم أغنياء فى العلوم الوسائل يجيدون أصولها وفروعها ، ولكنهم فقراء فى العلوم الغائية ، فما أشبههم بمن يريد نهرا لينهل منه ، فيعدل عن الطريق القاصد إلى طرق ملتوية دوّارة ، فيضنيه النصب ، ويحرقه العطش ، ثم يبلغ النهر وقد كلّ ، فلا يكاد يرتوى حتى يهلك .

ليس من الحكمة أن يدرس الطالب النحو فى الأشمونى وحواشيه ، والمغنى وأشباهه ، ولا من الرأى أن يدرس البلاغة فى حواشى السعد وشروح التلخيص وأضرابها من الكتب التى تصدت لدراسة البلاغة وهى من البلاغة براء ، أساليب وأفكارا .

---

(١) المقدمة ٤٧٤ (٢) التمهيد فى الرد على الملحدة ٣٤ —

إن كثيرا من الطلاب فى أشد الحاجة إلى رأى ابن خلدون ، ليؤخذوا به ، فينفسح أمامهم مجال الدراسة للعلوم الأصلية الأساسية المقصودة ، فيتقنوها ويجيدوها .

٣ — وإذ كان ابن خلدون قد ذهب إلى التوسع فى العلوم المقصودة ، والاكتفاء باليسير الضرورى من العلوم الوسائل ، فإنه نقد فى شدة أولئك الذين يختصرون الكتب ، فيحذفون فصولا ضرورية ، ويضغطون العبارات ضغطا ، ويحملون الألفاظ أثقالا من المعانى ، قاصدين تسهيل الحفظ على المتعلمين فيما سموه (المتون)[1] .

وهو موفق جدا فى هذا الرأى ، لأن الماسخين للكتب يجنون على عقول الدارسين بالإخلال والإملال والإعنات ، ويطفرون بالطالب إلى درجة لم يتهيأ لها عقله بعد ، وذلك بتعريفه غايات العلم ومشكلاته وهو لم يستعد لقبولها ، لقصور عقله ، وضعف مداركه ، فهو فى حاجة إلى ضرب المثل ، وعرض ما يلائم قواه . ثم إن فى هذا الضغط تلبيسا عليه ؛ لأن استخراج المعانى من الجمل المضغوطة عمل مضن شاق . على أنه يكلف أن يستوعب المتون ، وهذا إرهاق له .

وإن تأليف المتون وحفظها ، والكلف بالاقتضاب والاختصار ، وأخذ المتعلمين بالدراسة على هذا الطراز جهل بالتربية ، وتشويه لروعة العلم ، وإخلال بالعرض الحقائق .

ولقد قال عالم لآخر اختصر كتابه ومسخه : لقد كان لكتابى يدان فبترت يدا ، وساقان فقطعت ساقا ، وعينان ففقأت عينا ، وكان رَجلا فأرجعته طفلا ، فعل الله بك مثل الذى فعلت به .

---

(١) المقدمة ٤٧٠

وإذا كنا نجأر بالشكوى من حال التعليم فى مصر ، ونقول إن المدارس لاتهبنا العقول المفكرة ، ولا الآراء المدبرة ، ولا الأذهان المبتكرة ، فقد يكون من أسباب ذلك أنها تعنى بالبحوث المختصرة ، والآراء المقتضبة الميسَّرة . وكلها هم أستاذ بالتوسع والبسط تذكر أن لديه برنامجا يجب أن يتمه ، ومقررا يتطلب بذل الهمة ، فعدل عن بسط الرأى إلى ضغطه ، وآثر الكم على الكيف .

إن دراسة العلوم للكبار فى مختصرات مبهمة لاتشحذ ذهنا ، ولاترهف عقلا ، ولا تغرس عادة البحث ، وقصاراها أنها عمل آلى مملول .

(٤) اتصال مجالس التعليم

رأى ابن خلدون ألا يطيل المعلم على المتعلم فى الفن الواحد بتفريق المجالس ، وتقطيع ما بينها ، لأن الفصل ذريعة إلى النسيان ، وقطع مسائل العلم ، والملكات تحصل بتتابع الفكر وتكراره ، وإذا تنوسى الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه .

تعليق

لانوافقه على رأيه ، لأن اتصال مجالس التعليم يبعث الكسل والملل ، ويطير بالنشاط والانتباه كل مطير ، فيجهد المعلم نفسه وتلميذه ليس معه .

وكيف يصبر المتعلم صغيرا أو كبيراً على المجلس المتصل والإصغاء المتوالى ؟

والخير ما تستنه المدارس من الراحة بين الدرس والدرس ، والراحة بين الأسبوع والأسبوع ، والإجازة بين العام والعام .

(٥) الشدة والعقوبة

١ — ذهب ابن خلدون إلى أن معاملة التلاميذ بالشدة مضرة بهم ، لأنها إرهاق للجسد ، وإفساد للخلق ، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها ، ودعاه إلى الكسل ، وحمله على الكذب والخبث ، خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة ، وصارت له هـــذه عادة وخلقا . وفسدت معانى الإنسانية التى له من حيث الاجتماع والتمدن ، وهى الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وصار عيالا على غيره فى ذلك . بل كسلت نفسه عن اكتساب الفضائل والخلق الحميد .... وهكذا حصل لكل أمة وقعت فى قبضة القهر ، ونال منها العسف .

٢ — على أن ابن خلدون لا يحظر العقوبة حظرا ، فقد نقل عن أبى محمد ابن أبى زيد أنه لا ينبغى لمؤدب الصبيان أن يزيد فى ضربهم — إذا احتاجوا إليه — على ثلاثة أسواط شيئا ، وقال إن من أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده الأمين « يا أحمد إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة . وطاعتك له واجبة ... وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة [1] .

وإجمال ذلك :

ا — القهر يحزن الصبى

ب — يدعوه إلى الكسل وبغض التعليم

حـ — يحمله على الخبث والخداع والكذب

---

(١) المقدمة ٤٧٧

و — يربيه على الخنوع والخنوع

هـ — يقعد به عن كسب الفضائل

تعليق :

١ — تأثر ابن خلدون بآراء سابقيه من مربي العرب ، فابن سينا يرى أن حسم الداء خير من علاجه ، وأن المربي الحكيم هو الذي يبعد بالطفل عما يغريه بالخطأ ، فإذا أخطأ فليراوح في عقوبته بين الترغيب والترهيب ، والإيناس والإيحاش ، والإعراض والإقبال ، والحمد مرة والتوبيخ أخرى ، فإن احتاج إلى الاستعانة باليد لم يحجم عنها . وليكن أول الضرب قليلا موجعا ، فإن الضربة الأولى إذا كانت موجعة ساء ظن الصبي بما بعدها ، واشتد خوفه منها ، وإن كانت خفيفة غير مؤلمة حسن ظنه بالباقي فلم يحفل به .

والغزالي ينصح المعلمين ألا يتشددوا على تلاميذهم ، وعليهم أن يشفقوا بهم ، ويجروهم مجرى بنيهم . وعليهم أن يزجروهم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على المخالفة ، ويهيج الحرص على الإصرار ، إذ قال صلى الله عليه وسلم ، وهو مرشد كل معلم : « لو منع الناس عن فت البعر لفتوه ، وقالوا ما نهينا عنه إلا وفيه شيء »[1].

وإلى حظر الشدة ذهب العبدري أيضاً ، وحذر المعلمين ما يفعله بعض المعاصرين له من إعداد عصا لضرب الصبيان ، لأن هذا لا يليق بمن ينتسب إلى حملة الكتاب العزيز ، على أن الصبيان مختلفون ، فرب صبي يكفيه

(١) الإحياء ١٠/٥٠

عبوسة وجه معلمه ، وآخر لا يرتدع إلا بالكلام الغليظ ، وآخر لا ينزجر إلا بالضرب والإهانة .

فاذا اضطر المعلم إلى الضرب فليكن غير مبرح ، ولا يزيد على ثلاثة أسواط شيئاً ، ولتكن أداة الضرب رقيقة (١) .

٢ — دعا المربون المسلمون إلى حظر العقوبة القاسية ، ووافقهم المربون الغربيون فيما بعد . وهم جميعاً محقون ، لأن العلم يجب أن يحبب إلى الطفل بالتشويق والإغراء ، ولأن تقويم الأخلاق وسيلته القدوة والنصح والتهذيب . والحق إن الشدة وعبوسة الوجه تبغض العلم والمعلم إلى المتعلم ، وتغرس فيه رذائل كثيرة ، والشدة لا تخلق أحراراً ، ثم إنها تذهب بعزة النفس . على أنها وازع بغيض مؤقت ؛ لأنها لا تعتمد على الوجدان والضمير والتمييز بين الحسن والقبيح . وكم خائف من العقوبة يقدم على الجريمة إذا أمن العيون . ثم هي تنزع من جو الطفولة أطياف البهجة والمسرة ، فتبتسر حياتهم ، وتكفهر أيامهم ، وتذبل نضارتهم .

وابن خلدون محق فى أن هذه الآثار لا تقف عند الطفولة أو الشباب بل تتعداهما إلى الرجولة .

ولا نستطيع أن نحظر العقوبة دائما ، لأن التجارب تثبت الحاجة إليها أحياناً ، ولقد نجد بعض التلاميذ متكاسلين أو مشاكسين ما دام أستاذهم لين المعاملة ، هين المؤاخذة ، فاذا ما آنسوا منه الحزم والصلابة تسابقوا إلى الطاعة والجد .

٣ — وإذا كان ابن خلدون ومن سبقه من مربى العرب قد حظروا

---

(١) المدخل ٦٤

العقوبة القاسية ، وأباحوا العقوبة الهينة إذا ما دعت إليها الحاجة ، فإنهم بذلك عمليون واقعيون . أما كوِنتليان المربي الروماني فقد جنح إلى الخيال في قوله : أنا لا أرضى بالعقوبات البدنية ، ولا أنصح باستخدامها وسيلة من وسائل التعليم في المدارس ، على الرغم من أنها عادة موروثة ، وعلى الرغم من أن شيخ الفلاسفة الرواقيين (كرسيبوس) لا يرى فيها بأسا ، فإنها عقوبات العبيد ، وفيها للأطفال مذلة ومهانة . وإذا كان الطفل خسيس الطباع لا يؤثر فيه التوبيخ ، ولا يردعه التأنيب ، فإن العقوبة البدنية لا تزيده إلا تبلداً وجموداً ، على أن الطفل إذا وجد بجانبه من يبصره بالواجب ، ويستميله دائماً إلى العمل لم تكن به حاجة إلى العقوبات القاسية [١] .

(٧) التعليم صناعة

يرى أن التعليم صناعة لا طبيعة ، لأن الحذق في العلم إنما يكون بحصول ملكة محيطة بمبادئه وقواعده واستنباط فروعه من أصوله وهذه الملكة غير الفهم والوعي ، لأنا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركا بين البادئين في هذا الفن والشادين فيه ، لهذا كان لا بد أن يقوم بالتعليم أصحاب ملكات فيه .

ثم إن تعليم العلم صناعة أيضاً لأن المصطلحات مختلفة ، فلكل إمام من المشهورين اصطلاح في العلم يختص به ، شأن الصناعات كلها ، وهذا الاصطلاح ليس من العلم ، وإلا لكان واحداً عند الجميع [٢] .

---

(١) تاريخ التربية ١٦٠ (٢) المقدمة ٣٦٠

تعليق

ذهب إلى أن التعليم صناعة لا طبيعة ، والحق إنه طبيعة أيضاً ، لأن الإنسان مفطور على نقل خواطره إلى غيره ، فيفهم ويتفاهم ، ويرث ويعلم ، وينشر الثقافة ، ولا يستطيع عالم أن يكتم علمه ، وهل تستطيع الوردة أن تحبس شذاها ؟

وهل يقدر الطفل أن يقمع ميله إلى الحركة ونزوعه إلى الحل والتركيب والاستطلاع ؟

ومن البديهى أن نزعة العالم إلى أن يُعَلِّم تقوى تبعا لكثرة الجماعة ، وعظم حضارتها ، وقوة الصلات بينها . . . وإذاً فالمعلم مطبوع ومصنوع ، ولا يغنى أحد الوصفين عن الآخر .

(٧) التعليم فى الأمصار

عرض فى هذا الفصل أساليب البلاد العربية فى التعليم ، وهى المغرب والأندلس وتونس والمشرق .

ومن عرضه نتبين أنها كلها تتفق فى البدء بالقرآن الكريم ، لكن بلاد المغرب تأخذ الصبيان بالقرآن وبرسمه ، وتقف عند ذلك ، لا تتعداه إلى حديث أو فقه أو شعر ، إلى أن يحذق فيه أو ينقطع ، فينقطع فى الغالب عن العلم .

أما الأندلس فتضيف إلى تعليم القرآن رواية الشعر والنثر ، وتأخذ أحداثها بقوانين اللغة ومتنها وبتجويد الخط . وتونس قريبة الشبه بهم .

وأما أهل المشرق فإنهم يزيدون إلى القرآن علوما ، عدا الخط فإن له

مدارسه المخصوصة ، والعلم فى المشرق مزدهر ، والصناعة راقية ، حتى إن الرحالة من المغرب يظنون أن عقولهم أقل من عقول المشارقة ، ويتشيعون لذلك ويولعون به[١] .

ويرى أن اقتصار أهل المغرب على القرآن قعد بهم عن إجادة العلوم اللسانية ، والبراعة فى الأدب ، ويعلل لذلك بقوله : « إن القرآن لا تنشأ عنه فى الغالب ملكة ؛ لأن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله ، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها ، وليس لهم ملكة فى غير أساليبه ، فلا يحصل لصاحبه ملكة فى اللسان العربى ، وحظه الجمود فى العبارات ، وقلة التصرف فى الكلام »[٢] .

ثم يبين أن أهل إفريقية — تونس — أخف من أهل المغرب فى هذا الضعف ، لأن النظام مختلف ، إذ أنهم يضيفون إلى القرآن بعض العلوم ، فيقتدرون على بعض التصرف ومحاذاة المثل بالمثل . على أن ملكتهم قاصرة أيضا ، إذ أن جل اعتمادهم على القرآن ، وأكثر محفوظهم علوم ضعيفة الأساليب ، ركيكة المعانى . ثم إن طالب العلم صموت فى مجلس العلم لا يتكلم ولا يسأل ولا يعارض ، معنى بالحفظ جداً ، لهذا لا يكتسب من تعلمه ملكة جيدة قوية ، ولا رأيا سديداً مستقلا ينافح به عن وجهته إذا علم أو جادل[٣] ، وما أتاهم القصور إلا من سوء طريقة التعليم ، وليست عقولهم متهمة لأنهم أسرع من غيرهم حفظا واستيعابا . على أن خطل طريقة التعليم

---

(١) المقدمة ٣٦٢ ، ٤٧٦

(٢) المقدمة ٤٧٦

(٣) المقدمة ٤٧٦ ، ٤٩٦ ، ٣٦٢

أطال عهده ، فأقصر مدة له فى المغرب ست عشرة سنة ، وهى فى تونس خمس سنوات [١]

ويرى أن الأندلسيين أسلم من المغاربة عبارة ، وأسمى أدبا ، وأرصن أساليب ، لأنهم يروون الشعر الجيد والنثر البليغ ، ويدرسون اللغة من الصغر [٢] ولكنهم قصروا فى العلوم والفلسفة والفقه لتناقص عمرانهم بهجمات الأعداء [٣] ، ولبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث ، وهى أصل العلوم وأساسها ، فكانوا لذلك أهل أدب [٤]

تعليق :

١ — الحق إن القرآن وحده لا يكفى ، ومن التجوز أن نسمى حافظه متعلما ، بل لا بد من أن تصحبه ، أو تتبعه أو تسبقه علوم أخرى ، ولست أعنى بهذا أن الاكتفاء به كالتجرد من التعليم أصلا ، لأن حافظى القرآن فى مصر — وكثير منهم لا يعرف غيره ، وأكثرهم لا يفهم القرآن إلا فهما سطحيا — أحلى حديثاً وأسلم نطقا وأقوى عبارة وأقدر على فهم اللغة ممن لم يحفظوه ، ولم يجلسوا إلى معلم . ولقد يتأثر بعضهم بأساليب القرآن ، فيحاول التحدث بلسان عربى وعبارة منمقة .

٢ — ولست أوافقه على أن حفظ القرآن الكريم لا تنشأ عنه ملكة ، لأن الناس مصروفون عن الإتيان بمثله ، وعن محاكاته ، وليس هنا مجال تفصيل مذهب الإعجاز الذاتى ، أومذهب الصرفة الذى ذهب اليه النظام ، وإنما أرى أن كثيراً من الأدباء الإسلاميين تأثروا به فى العبارة والخيال

---

(١) المقدمة ٣٦٢ (٢) المقدمة ٤٧٦
(٣) المقدمه ٣٦٢ (٤) المقدمه ٤٧٦

واقتبسوا منه المعانى ، وقد ألف أبو العلاء كتابه الفصول والغايات على نمط القرآن الكريم ، ومن الطبيعى أن اللحاق بأسلوب القرآن محال ، ولكن المحاكاة مستطاعة .

(٨) القرآن الكريم

يقول إن تعليم القرآن شعار دينى ، لأنه يتنزل على قلب الطفل الغض بالإيمان والعقائد فيرسخ يقينه ، ويقوى دينه ، وتعليم الصغر أبقى وأثبت من تعليم الكبر .

ثم يعرض رأى القاضى أبى بكر بن العربى فيقول إنه قدم تعليم اللغة والشعر على سائر العلوم كمذهب الأندلسيين ، لأن الشعر ديوان العرب ، ولأن اللسان العربى اعوجّ وانحرف ، وحاجتنا الى تقويمه تضطرنا إلى تقديمه ، ثم ينتقل التلميذ الى الحساب ثم القرآن الكريم ، وحينئذ يتيسر له فهمه « ويا غفلة أهل بلادنا فى أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول أمره ، يقرأ ما لا يفهم ، وينصَبُ فى أمر غَيْرُهُ أهم عليه ، ثم بعد ذلك ينظر فى أصول الدين ، ثم أصول الفقه ، ثم أصول الجدل ، ثم الحديث وعلومه . وعقب ابن خلدون على ذلك بأنه مذهب حسن ، لكن العادات لا تساعد عليه ، فقد ألف الناس تقديم القرآن استدراراً للخير والبركة والثواب ، وخوفا من طروء حدث على الصبى يمنعه من حفظ القرآن ، وثقة بأن الصبى فى صغره أطوع للأمر ، فإذا ما شب فقد يستعصى ويرغب عن حفظ كتاب الله « ولو حصل اليقين باستمراره فى طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذى ذكره القاضى أول ما أخذ به أهل المغرب والمشرق »[1]

---

(١) المقدمة ٤٧٧

تعليق

يظهر أن ابن خلدون ميال الى رأى ابن العربي ، لأن ردوده واهنة ، ذلك بأن العادة تغير ، ولو لم نخضع عاداتنا للتغيير والترقى لظللنا فى جمود أو تقهقر ، ولو لم يغير المربون عادات معاصريهم ما بلغت التربية وعلم النفس هذا الأوج . والعجيب من ابن خلدون العالم الاجتماعى أن يتخوف مخالفة العادة .

ثم إن التبرك لا ينقطع ما دام القرآن يحفظ ويدرس ، وكل ما حدث أنه نقل من صغار لا يفهمونه إلى كبار يحفظونه ويفهمونه ، ولعل هذا أكثر استدراراً للخير والبركة والثواب ، فلقد نزل القرآن ليفهم أولا لا ليحفظ .

ثم إن الخوف من طروء آفة على الصبي أو من تمرده حجة واهية ، بل هى تعلة يلجأ إليها من يعتصم بغير معتصم . وأرى أن ابن العربي محق ، ولو استطعنا أن ننفذ ما أشار به لضمنا حفظ القرآن وفهمه ، ولضمنا للغة قوة وروعة واحتذاء بأساليبه . وإن لم نستطع تحقيق رأى ابن العربي فلنتوسط بين الرأيين ، فنأخذ الأحداث بحفظه مشروحا على أقدار عقولهم .

(٩) الرحلة فى طلب العلم

دعا إلى الرحلة فى طلب العلم ، لأن البشر يتلقون علومهم ويكسبون أخلاقهم تارة علما وتعليما ، وتارة محاكاة وتلقينا . ولا شك أن التلقين والمباشرة أجدى ، وعلى قدر كثرة الأساتذة تحصل الملكات وترسخ ، ثم

أن لقاء الأساتذة كفيل بإدراك مصطلحاتهم ومعرفة طرقهم ، ووسيلة إلى تصحيح المعارف[١] .

تعليق :

١ — كانت الرحلة فى طلب العلم سنة شائعة بين المسلمين ، فكان كثير من طلاب العلوم يجوبون ربوع العالم ، ويلقون شيوخهم ، مستهينين بالصعاب من متاعب ونفقات واغتراب وأخطار .

والأمثلة على ذلك كثيرة جدا . فمثلا أبو الخطاب عمر بن الحسن الأندلسى اشتغل بطلب الحديث فى أكثر بلاد الأندلس ، ولقى بها علماءها ومشايخها ، ثم رحل عنها إلى برالعدوة ودخل مراكش ، واجتمع بفضلائها ، ثم رحل إلى إفريقية ومصر والشام والعراق ،وسمع ببغداد وبواسط ، ودخل عراق العجم وخراسان وما والاه ، كل ذلك فى طلب الحديث والاجتماع بأئمته والأخذ عنهم[٢]

وأبو عوانة يعقوب بن إسحق النيسابورى طوف بالشام ومصر والبصرة والكوفة وواسط والحجاز والجزيرة واليمن وأصبهان والرى وفارس ، فى طلب الحديث[٣]

ومحمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى كان رحالة يجوب بلاد الأندلس فى طلب الحديث[٤]

ولقد ذكر ابن خلكان أن سليمان الفلسطينى لقى فى الجزيرة والحجاز

---

(١) المقدمة ٤٧٨ (٢) وفيات الأعيان ٤٨٢/١

(٣) وفيات الأعيان ٣٠٨/٢ (٤) فوات الوفيات ٢٢٦/٢

واليمن ومصر ألف أستاذ ، فى اثنتين وعشرين سنة ، وأن تاج الإسلام أبا سعد ورد ينابيع العلم فى شتى الديار ، فبلغ أساتذته أربعة آلاف .

وقد عثر الخطيب التبريزى على مجلدات من كتاب التهذيب للأزهرى ، بعضها فى حاجة إلى الضبط ، فقصد أبا العلاء المعرى حاملا كتابه على ظهره ، عاجزاً عن استئجار راحلة ، قاطعاً فى سفرته من تبريز إلى المعرة نحو ألف كيلومتر ، لكنه لما بلغ أبا العلاء وجد العرق قد نشع من الحقيبة إلى الورق فكاد يتلفه كله .

وما زال الطلاب إلى الآن يغادرون أوطانهم فى طلب العلم ، لأن كثرة الأساتذة ، وتنوع ثقافتهم ، يكفل للمتعلم ثقافة منوعة .

٢ — على أن ابن خلدون أغفل آثار الرحلات الأخرى ، من تأثر بأخلاق الأساتذة ، وبالبيئة الجديدة ، ومن الاطلاع على عادات نافعة ونظم منوعة ، ونقل الصالح منها إلى الوطن ، حيث يغرسه الطالب فى بلاده نبتاً سريع النماء ، طيب الآثار والثمار .

(١٠) المدرسون

١ — يقول إن العلماء أبعد الناس عن السياسة ومذاهبها ، لأنهم اعتادوا النظر الفكرى ، وتجريد الصور الذهنية من المحسات ، وقياس الأمور على أشباهها ونظائرها ، ولأن آراءهم لا يتحقق أكثرها ، وإنما تتحقق فروع منها ، وهى لا تتحقق إلا بعد الفراغ من البحث والنظر والفرض والجدل .

أما السياسة فمعتمدة على الحوادث الواقعة ، ولا يحسن فيها القياس ؛ لأن

أحوال العمران وإن اشتبهت لا ينقاس بعضها على بعض ، فربما اختلفت فى أمور أخرى . لهذا إذا تولى أزمتها العلماء أفرغوها فى قوالب أنظارهم ، وأنواع استدلالهم ، فعمموا الأحكام ، وقاسوا الأشباه ، فيقعون فى الغلط ولا يؤمن عليهم الزلل[١]

٢ — ويرى أنهم فى الأعم الأغلب لا يقتنون ثروة ، ويشبههم فى ذلك العلماء والفقهاء وأصحاب الفتيا والقضاء والإمامة والخطابة ، ودليله أن قيم الأشياء تختلف باختلاف الحاجة إليها ، وإذا كانت الأعمال ضرورية فى العمران كانت قيمتها أعظم من الكمالية ، وأهل العلم والدين لا يضطر العامة إليهم ، وإنما يحتاج إليهم الخواص ، وهم أيضا أصحاب ثقافة وبضاعة شريفة ، فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منهم حظا يستدرون به الرزق ، بل إن أوقاتهم لا تفرغ لذلك ، لأنهم مشغولون بالقراء والتأليف[٢] .

٣ — والعلماء جبناء ، لأنهم أخذوا بالتأديب والتعليم منذ الصغر ، وهذا ينقص من بأسهم كثيرا[٣] .

تعليق :

١ — يظهر أن أكثر العلماء فى عصره لم تكن لهم طاقة بالسياسة وألاعيبها ، لأن التفكير عندهم أقوى من العزيمة ، أما رجال السياسة والحرب فيجب أن تغلب عزيمتهم تفكيرهم .

كانوا تأمليين ، يؤثرون الأخيلة والفروض على الحقائق ، ويعنون بالآراء النظرية أكثر من عنايتهم بتحقيقها ، ويقدمون التفلسف على التجربة

---

(١) المقدمة ١٠٦

(٢) المقدمة ٤٧٩ (٣) المقدمة ٣٣٠

والملاحظة ، وكانوا يهربون من تحمل التبعات ، ويرغبون عن المغامرة والصراع ، فهم أجدر بالأعمال الهادئة والبحث العلمى والتفكير ، ولا يصلحون للأعمال التى تلائم الرجل النزوعى العملى ، كالتجارة والصناعة والحرب والسياسة .

أما فى هذا العصر فإن العلماء والمعلمين قديرون على أن يحكموا ويسوسوا ويزاولوا أى شأن عملى ، لأن ثقافتهم ودراستهم وتجاربهم غير ما كان عليه الحال فى عصر ابن خلدون .

ومن عجب أن يعتقد ابن خلدون هذا الرأى ، وقد دعا أفلاطون إلى نقيضه ، إذ قصر الحكم فى جمهوريته على الفلاسفة .

٢ — وقد حاول أن يستكنه السبب فى فقر العلماء فوفق كثيراً ، ولا سيما إذا أضفنا إلى ما ذكر أنهم لا يمارسون التجارة والصناعة فى الغالب وهما ينبوع ثروة ، وأنهم لا يرتضون ربحاً أو مالا من طريق غير مشروع ، وأن هذا الحكم يصدق فى عصر الجهالة كعصر ابن خلدون .

٣ — أما دعواه أنهم جبناء فقد سبق الرد عليها .

٤ — ولا شك أنه تأثر بحال المعلمين فى عصره ، فهو يقول « التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبية ، والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم ، وإن التعليم فى صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك ، كان أهل الأنساب والعصبية هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، إذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم ، وبه هدايتهم . . . فلما استقر الإسلام اشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان ، وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدى للتعليم ،

واختص انتحاله بالمستضعفين ، وصار منتحله محتقراً عند أهل العصبية »[1]

يتضح من هذا أن المتعلمين كانوا ذوى مكانة إلى الدولة العباسية ، وأنهم كانوا من ذوى العصبية والجاه ، وليس أدل على ذلك من تبجيل الخلفاء والأمراء لهم . ثم لما ضعفت الأمة وتفشى فيها الجهـــل هبطت أقدار المعلمين ، وهل ينتظر أن تروج المصابيح بين العمى الذين لا يبصرون ؟

وقد سبق الجاحظ إلى الدفاع عن المعلمين ، والرد على اتهام بعضهم بالحمق ، فذكر أن المعلمين على ضربين : منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم هؤلاء إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ، فكيف نستطيع أن نزعم أن مثل على بن حمزة الكسائى ومحمد بن المستنير الذى يقال له قطرب وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى ؟ لا يجوز هذا القول على هؤلاء ، ولا على الطبقة التى دونهم — يعنى معلمى أولاد الخاصة — فإن ذهبوا إلى معلمى كتاتيب القرى ، فكيف نقول هذا القول فى هؤلاء ، وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء مثل كميت بن زيد ، وعبد الحميد الكاتب الخ على أن لكل قوم حاشية وسفلة ، وليس المعلمون فى ذلك إلا كغيرهم[2]

---

(١) المقدمة (٢) البيان والتبيين ١/٢٠٨ طبعة السندوبى

آثار العلوم وغاياتها

درس العلوم دراسة مفصلة من حيث نشأتها وتطور التأليف فيها ، وتهمنا من هذه الدراسة غاياتها :

١ — العلوم اللسانية أربعة : هى اللغة والنحو والبيان والأدب ، والغاية منها فهم الكتاب والسنة ، وصحة القراءة والكتابة والحديث [١] .

٢ — وثمرة علم البيان أن يساعد على فهم إعجاز القرآن ، لأن العرب كانوا أصحاب ملكات وأذواق فى اللغة لقنوا بها إعجازه ، أما المستعربون فإنهم فى حاجة إلى مقاييس يعرفون بها الإعجاز ، ويزنون أقداره [٢] .

٣ — ويقول إن القرآن يأخذ بدارسيه إلى ذروة البلاغة فى الإنتاج الأدبى ، ويستدل على ذلك بأن شعر الإسلاميين أرفع من شعر الجاهليين ، لأنهم نشئوا على أساليب القرآن والحديث ، فنهضت طباعهم ، وجادت قرائحهم ، وفاتوا من قبلهم من أهل الجاهلية ، ولقد سألت يوما شيخنا الشريف أبا القاسم قاضى غرناطة ، وكان شيخ هذه الصناعة : ما بال العرب الإسلاميين أعلى طبقة فى البلاغة من الجاهليين ؟ ولم يكن يستنكر ذلك بذوقه ، فسكت طويلا ، ثم قال لى : والله ما أدرى . فقلت : أعرض عليك شيئا ظهر لى فى ذلك ، أو لعله السبب فيه ؟ وذكرت له هذا الذى كتبت ، فسكت معجبا ، ثم قال : يافقيه ، هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب . وكان من

---

(١) المقدمة ٤٨٢ - ٤٨٨ (٢) المقدمة ٤٨٨

بعدها يؤثرنى ، ويصيخ فى مجالس التعليم إلى قولى ، ويشهد لى بالنباهة فى العلوم »[١]

٣ — أما الأدب فالغاية منه إجادة المنظوم والمنثور على أساليب العرب ، والاطلاع على أيامهم وأنسابهم وأحوالهم عامة ، وذلك كله عون على فهم كلامهم وأساليبهم[٢]

٤ — وتحدث عن الغاية من كل علم سواء أكان من العلوم اللسانية أم العلوم الشرعية أم من العلوم العقلية[٣]

تعليق

١ — الحق إن الذى لايدرس علوم البلاغة ولا يتزود بالذوق الأدبى يعجز عن تفهم أسرار بلاغة القرآن الكريم من حيث أسلوبه القوى الجزل الرصين ، ومعناه الرفيع البديع ، وعذوبة لفظه ونصاعته ، لكنه يعلم أنه معجز ، لأن العرب عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة من مثله ، وهذا من العالم المتأدب جد قبيح .

على أن ابن خلدون أغفل مزايا العلوم اللسانية والبيان خاصة فى إعانتها على النظم الجيد والنثر البارع ، وفى تربيتها الذوق وملكة النقد ، أو فى مساعدتها على الموازنة والمفاضلة بين الشعراء والكتاب .

٢ — وحسن منه أن يعلل لرقة شعر الإسلاميين بأنها أثر من دراسة القرآن والحديث . لكن كانت هناك عوامل أخرى ولاسيما بعد عصر صدر

---

(١) المقدمة ٥١٠ (٢) المقدمة ٤٨٨

(٣) المقدمة ٣٦٥ - ٤٠١

الإسلام ، أى فى عصر جرير والفرزدق ، وبشار ، وصدر الدولة العباسية كما مثل ابن خلدون(٤) ، منها البيئات الجديدة ، والحضارة الناشئة ، والمدنيات المغلوبة الغالبة ، والعلوم والثقافات المختلفة ، وطبيعة الترقى والتطور ، والتشجيع والمنافسة الخ كانت هذه كلها كوثرا نميرا نهل منه الأدب فاخضَلّ ، وأثمر ، وآتى أُكله عذبا شهيا .

٣ — على أن ابن خلدون قد اتخذ العلوم والصناعات وسائل للكسب والنفع المادى فى الغالب ، متأثرا بنزوعه العملى ، وعقله التجريبى . فلقد قدم العيش الضرورى على الصناعة والعلم ، ثم قدم الصناعة المختصة بالعيش كالحياكة والنجارة على المختصة بالأفكار كالغناء والشعر والتعليم .

وهو بذلك يقدر العلوم والصناعات بقيمتها المادية ، ويهمل آثارها فى تهذيب الخلق ، وترقية الوجدان ، وإرهاف العقل .

تعليم البنات

لم يشر ابن خلدون إلى تعليم البنت ، بل لقد أغفلها فى حديثه عن المنزل والصناعات ، وخصص مباحث طوالا لدراسة البوادى ، وشرح الصناعة ، وبيان أنواع العلوم ، وفروعها ، وأطوار رقيها ، وأشهر مؤلفاتها فى الشرق والغرب ، لكنه لم يذكر المرأة مرة واحدة ، أو يلمحها لمحة عابرة .

على أن الإسلام فسح مجال العلم للذكور والإناث ، وفى ظلال الإسلام ذاعت شهرة كثيرات من العالمات والأديبات والفقيهات وراويات الشعر

---

(١) المقدمة ٥١٠

والمغنيات، وقد سمع الإمام الشافعي الحديث من نفيسة بنت أبي محمد الحسن ابن زيد بن الحسن بن علي [١] .

ثم كان منهن معلمات ذوات منتديات كسكينة بنت الحسين ، ومؤنسة الأيوبية ، وشامية التيمية ، وزينب البغدادية ، والعروضية ، وشهدة الكاتبة. على أن المرأة التونسية — وتونس وطن ابن خلدون — كانت قد اشتهرت في عصر الإسلام الذهبي بحسن الإنتاج ، ودماثة الخلق ، ولين العريكة ، والاستعداد للقيام بالأعمال ، حتى قال أبو عثمان الدلال : إن أعلى مثل للجارية أن تكون من أصل بربري ، قد فارقت بلادها في التاسعة من عمرها ، ومكثت بالمدينة ثلاث سنوات ، ثم ثلاثا بمكة ، ثم نزحت إلى العراق في السادسة عشرة ، فإذا ما بيعت في الخامسة والعشرين كانت قد جمعت بين جودة البربريات ، ودلال المدنيات ، ورقة المكيات ، وثقافة العراقيات [٢] .

إذاً كانت المرأة المسلمة جديرة بالتعليم ، وقد أتيحت لها الفرص فانتهزتها ، والمرأة التونسية صالحة للتعليم ، قابلة للصوغ والتشكيل ، مستعدة للفهم والتفوق ، فكيف جاز لابن خلدون أن يغفل عن تربية المرأة وتعليمها ؟ ولست أوقن بالباعث على هذا الإهمال ، وأرجح أن الركود الذهني الذي كان يغمر العالم الإسلامي في عصر ابن خلدون قد صرفه عن المرأة إلى الرجل . وليس ببعيد أن كانت النساء على عهده مكاسيل جواهل، ولا سيما في المغرب ، فلم يسترعين تفكيره وعنايته . على أنا كنا نرتقب

---

(١) وفيات الأعيان ٢ / ١٦٩

(٢) ضحى الإسلام ١ / ٨٦

من علامتنا الاجتماعي الفذ أن يخرج على أوضاع معاصريه ، فيعنى بتربية النساء وتعليمهن ، ويرسم الخطة المثلى للعالم الإسلامى فى وظيفة المرأة ، وما يليق لها من العلوم والأعمال . وكنا نرتقب منه أن يجهر برأيه إذا كان لم يأنس نفعاً فى تعليم النساء ، ولم ير حاجة إلى تثقيفهن أو تعليمهن صناعة ، لأنهن خلقن للبيوت وجر الذيول ، أو لأنهن غير صالحات للنبوغ والتفوق كما ذهب روسو وشو بنهور .

ومهما يكن من شيء فإن هذه الفروض كلها أو بعضها لا تنجيه من النقـــد .

وقد ذهب أفلاطون إلى أن تعلم البنات ما يُعلَّم الذكور ، ودعا ابن سينا إلى تعليم المرأة قبل عصر ابن خلدون .

آراؤه فى علم النفس

فى المقدمة آراء فى علم النفس منثورة ، رأيت أن أجمع بعضها إلى بعض ، كما سبق فى دراسة البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وأن أعرضها ، وأشفع إليها التحليل والموازنة

دراسة النفس ضرورية للمربين

يرى أنه يجب على من يتصدون لتعليم النشء أن يدرسوا طبيعة الفكر ، وتطوره من الحداثة إلى الكبر ، ليسايروا العقل فيما يقررون من علوم ، وليجاروا قدرة المتعلم فى القدر الذى يعلمونه إياه ، فيتدرجون به شيئا فشيئا ، ويقربون له الشرح على سبيل الإجمال ، مراعين قوة عقله واستعداده لقبول ما يلقون عليه [1]

تعليق

أسلفت فى (الطريقة المثلى للتعليم) ان هذا الرأى مجمع عليه من المربين المسلمين وغيرهم .

على أن ابن خلدون لم يرض طريقة المعلمين فى عصره ، لأنهم « يجهلون طرق التعليم وإفادته ، ويحضرون المتعلم فى أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ، ويطالبونه بإحضار ذهنه فى حلها ، ويحسبون ذلك مرانا على التعليم

---

(١) المقدمة ٤٧١

وصوابا فيه . . . ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون فى مباديها ، وقبل أن يستعد لفهمها . . . »[١] .

وقد ندّد مونتين بمعلمى عصره (القرن السادس عشر) تنديدا يشبه ما قاله ابن خلدون : « ما أشبه المعلمين فى هذا الزمان بكبار الطير ، تذهب إلى الحقول تنقب فيها عن طعام لصغارها ، فتجمع من هنا وهناك كل ما صادفها ، حتى إذا ماملأت مناقيرها بالحب عادت فألقته فى مناقير أولادها ، من غير أن تذوق له طعما . فالمعلمون اليوم كذلك ينقبون فى الكتب ، ويجمعون منها مسائل العلوم والفنون ، من غير تمييز بين مايفيد التلميذ منها ومالا يفيده ، ثم يضعونه على أطراف ألسنتهم ، حتى إذا صاروا بين التلاميذ تفلوه بينهم ، وكلفوهم حفظه وإعادته .. فهم بذلك يشجعوننا على الاستجداء ونحن أغنياء ، ويدربوننا على أن نملأ أعيننا من أشياء غيرنا ، ونترك أشياءنا مجفوّة مهملة »[٢] .

الملكات

ذهب ابن خلدون إلى أن إجادة ملكتين فى آن واحد أو فى وقتين أمر مستحيل أو متعذر ، سواء فى ذلك الصناعات والعلوم ، « ومثال ذلك الخياط إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت فى نفسه فلا يجيد بعدها ملكة النجارة أو البناء ، إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ، ولم ترسخ صبغتها »[٣] « ولا تتفق الإجادة فى فن المنظوم والمنثور معا إلا للأقل ، لأن البيان ملكة فى اللسان »[٤] .

---

(١) المقدمة ٤٧١ (٢) تاريخ التربية ٢٥٤

(٣) المقدمة ٣٣٩ (٤) المقدمة ٥٠١

ويعلل لذلك بأن الملكات صفات للنفس وألوان ، فلا تزدحم دفعة ، ومن كان على الفطرة كان أسهل قبولا لها وأحسن استعداداً لحصولها ، فإذا تلونت النفس بالملكة الأخرى ، وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد لقبول ملكة أخرى . وهذا بيِّن يشهد له الوجود ، فقل أن نجد صاعب صناعة يحكمها ثم يحكم أخرى بعدها ، ويكون فيهما على رتبة واحدة من الإجادة . وكذلك أهل العلم أصحاب الملكة الفكرية ، فإن من حصل منهم على ملكة فى علم قلّ أن يجيد ملكة علم آخر على نسبة الأول ، إلا فى الأقل النادر [١] . والذين كانت لهم سابقة فى العجمة لا يبرعون فى اللسان العربى وإن تعلموه وعلموه ، كالفرس والبربر والروم والإفرنج [٢] .

فهو يرى أنه من النادر أن يجيد شخص واحد صناعتين ، أو يتقن لغتين ، أو يبرع فى علمين .

تعليق :

صدر ابن خلدون فى هذا الرأى عن بعض القدامى الذين قسموا العقل إلى عدة قوى سموها ملكات ، من يونان وعرب ، وبقيت هذه الفكرة إلى زمن قريب . فعرفها (هملتون) و (ليبنتز) بأنها نوع خاص من الإدراك بسبب العمل العقلى . وتوسع (لوك) فافترض لكل عمل عقلى ملكة خاصة ، وتبعه كثير ، فقالوا الملكة الخلقية ، والملكة المميزة ، وملكة التصور ، وقال (فروبل) ملكة الكلام . وهذا هو الذى ذهب إليه ابن خلدون ، فإنه قال ملكة الحساب ، وملكة اللغة ، وملكة النجارة ، وملكة التعليم الخ .

---

(١) المقدمة ٣٤٠ (٢) المقدمة ٥٠١

لكن ابن خلدون رأى أن الملكات مكتسبة ، وبعض المحدثين من المفكرين رأوا أنها هبات موروثة لا تكتسب ولا تعلم ، فمن وهبه الله ملكة الحفظ كان حافظا ؛ ومن وهبه الله ملكة الذكر كان ذكوراً ، ومن منحه الله ملكة التخيل كان شاعراً أو قصاصاً أو أديبا .

ورأى ابن خلدون أن قوة ملكة لا تقوى الأخرى ، ورأوا أن تقوية ملكة فى ناحية يقويها فى سائر النواحى ، ويقوى غيرها معها . ولكن الفلاسفة وعلماء النفس المحدثين على أن العقل وحدة لا تتجزأ ، فقد أرجع (كانت) إلى الإدراك وحده كل أعمال العقل ، وقرر (ديكارت) أن العقل وحده هو الذى يدرك ويعى ، لهذا أثبت وجوده بقوله (أنا أفكر ، أنا موجود) لأن الفكر هو المظهر الذى يشعر الكائن الحى بوجوده ، والعقل عنده وحدة .

وقرر علم النفس أن العقل وحدة كاملة لا يمكن تجزئتها ، ولا تقسيمها إلى قوى ، وأن أعماله متصلة مترابطة ، وأن تمرين ملكة واحدة وتقويتها فى ناحية معينة يقويها فى هذه الناحية وحدها ، ولا يحدث أى تغيير جوهرى فى النواحى الأخرى لهذه الملكة أو لغيرها ، ونلاحظ أن علم النفس الحديث حينما يقول ملكة لا يقصد إلا التسامح والتسهيل لا مجاراة الرأى القديم .

ولقد قام العلامة (ثورنديك) بتجارب أثبتت له أن الملكة الواحدة قد تقوى فى فرع من ناحية ثم لا تقوى فى أشباه هذا الفرع .

وإذاً فعلم النفس الحديث مع ابن خلدون فى أن تقوية ملكة لا يؤدى إلى تقوية أخرى ، ويخالفه فى تقسيمه الأعمال العقلية إلى ملكات منفصلة منعزلة ، لهذا لا يرى أنه من العسير على شخص أن يجيد صناعتين أو علمين

فى آن واحد ، أو فى آونتين متعاقبتين .

وقد يكون ابن خلدون على حق فى أن الإنسان لا يجيد ملكتين على السواء ، وإن أجادهما على تفاوت . فالكثير الغالب أن يجيد الشخص فى ناحية ويبرز فيها ، فالبحترى وأبو نواس والمتنبى أجادوا الشعر وحده ، وابن زيدون شاعراً أعظم منه كاتبا ، وكذلك شوقى . وسعد زغلول خطيبا أعظم منه كاتبا .

و (شوبر) الموسيقى البارع كان لا يحسن غير الموسيقى ، و (لابلاس) أعظم رياضى فى عهد نابليون أخفق فى إدارة العمل الذى وليه ، و(نيوتن) المفكر العظيم أخطأ خطأ مضحكا ، فقد كان له قطتان يعتز بهما ، ويأنس برؤيتهما فى مكتبه ، وفكر فى طريقة تيسر عليهما الدخول والخروج بغير أن يقوم ليفتح لهما الباب ، ففتح فيه ثغرتين صغيرة وكبيرة لكل منهما ، ثم أدرك خطأه ، واكتفى بالكبرى لأنها تصلح لهما على التعاقب .

العقل الجمعى

١ — شبه الجماعة بالفرد فى نهضتها وسقطتها وأسباب كليهما . وقال إن أفكار الأفراد مجتمعة هى أفكار المجتمع ، وإنتاجهم العام هو إنتاجه ، ومائل نمو الدولة وأطوارها بنمو الفرد وأطواره .

٢ — وإذْ اعتمد زعم المنجمين أن العمر الوسط للإنسان مائة وعشرون سنة فقد قاس عليه عمر الدولة ، ورجح أنها لا تعمر أكثر من ذلك . وقال إن هذا العمر يحصر ثلاثة أجيال ، والجيل أربعون سنة ،

لقوله تعالى (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة) ليشب منهم جيل قوى صالح ، ويفنى هذا الجيل الضعيف الطالح [١] .

إذاً فالجماعة كالفرد فى نشأتها ونموها وأطوارها وآرائها وأعمارها .

٣ — ونسب إلى فقدان الفرد حسبما آسباباً جعلها نفسها هى التى تسقط الدولة ، فرأس الأسرة وبانى مجدها هو الحفيظ على بنائه ، الحريص على نمائه وبقائه ، وابنه يشبهه ، ولكنه أقل منه حرصـــا ، لأنه لم يعان ماعانى أبوه ، وحفيده مترسم طريقه مقتف أثره ، يقلد ولا يبتدع ، فهو أقرب إلى التقصير من سلفه ، ثم ابن الحفيد أعظم من هؤلاء تقصيرا ، وأعظم اقتناعا بأن هذا المجد جاءهم طوعا ، وأنه حق لهم ، لايجوز أن يطير عنهم ، فلا يوطد دعائمه ، ولا يقرب إليه أعوانا وأنصارا ، وهنا ينهار على يديه ما بنى أوائله .

وبمثل هذا تتطور الدولة وتسقط ، لأن الجيل الأول أقرب إلى البداوة وخشونتها ، فهم أهل غلب وبسالة ومسارعة إلى المجد . والجيل الثانى مترف ، يكل أمره وبناء مجده إلى رئيسه ، فهو ضعيف متواكل ، ولكن قربه من الجيل الأول يحفزه إلى الاعتزاز بميراثه . أما الجيل الثالث فإن غضارة النعيم وخفض العيش ، واستفاضة الرفه ، واعتياد الخضوع ، كل أولئك يفقده صفات الرجولة ، ومؤهلات الملك ، فلا هو بالبانى ، ولا هو بالحامى لما ورث ، وهنا يضطر صاحب الأمر إلى الاستنصار بالجنيب والاستكثار من الموالى ، واصطناع من يظنه أزرا ووليا ، فتسقط الدولة ويدركها الفناء [٢] .

---

(١) المقدمة ١٤٢ (٢) المقدمة ١٤٢ ، ١١٥

تعليق :

لم يوفق ابن خلدون فى قياسه الجماعة على الفرد ، لأن الجماعة صارت بالجمع ذات عقل جمعى خاص ، له مميزاته وخصائصه التى تغاير العقل الفردى . فعقول الأفراد فى المجتمع كالعناصر التى تتحد اتحادا كيميائيا ، فتصير مركبا جديدا ، له صفات غير صفات أجزائه التى ركبته . « وسبب ذلك انضمامهم وصيرورتهم جماعة واحدة ، ومن الأفكار والمشاعر ما لا يتولد أو يتحول فيخرج من القوة إلى الفعل إلا عند الفرد فى جماعة ، فالجماعة ذاتٌ عارضةٌ مؤلفة من عناصر مختلفة ، اتصل بعضها ببعض إلى أجل ، كخليات الجسم الحى التى ولدت باتصالها ذاتا أخرى ، لها صفات غير صفات كل خلية منها »(١)

وحتى على فرض أن الفرد يستطيع أن يُسْهم مختارا فى إيجاد بعض الانفعالات الاجتماعية فإن الحالة النفسية التى يشعر بها فى الجماعة مغايرة لما يشعر به منفردا ، ولذا إذا انفض الجمع ، وكَفَّت العوامل الاجتماعية عن التأثير فينا ، ووجد كل امرئ منا نفسه وجها لوجه فإن العواطف التى مرت بشعورنا قبل ذلك تبدو لنا غريبة ، إلى حد أنا لانكاد نصدق أنها قد مرت بشعورنا فعلا . ومن الممكن جدا أن يندفع بعض الأفراد المسالمين كل المسالمة إلى القيام بأعمال همجية متى وجدوا فى الجماعة .

وينطبق هذا الانفجار الاجتماعى المؤقت على حركات الرأى العام الأكثر دواما ، أى على التيارات الاجتماعية التى تحدث فى البيئة دون

---

(١) روح الاجتماع ٢٨

انقطاع ، أو التى تنشأ فى المجتمع كله أو فى بعض دوائره الضيقة التى تمس العقائد الدينية والسياسية ، أو التى تتعلق بالآراء الأدبية والفنية وغيرها »[١]

الفطرة

لابن خلدون فى فطرة الطفل ثلاثة آراء متضاربة ، أو على الأقل يتضارب الأولان منها والثالث .

١ — يقول إن أهل البادية أقرب إلى الخير من أهل الحاضرة ، لأن نفوسهم وهى على الفطرة اسْتَبَقَتْ إليها عوامل الخير فقربتها من الخير ، أما الحضر فقد أسرعت إليهم عوامل الشر فأدنتهم من الشر ، ويستدل على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد فى الفطرة ، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه »[٢] . وموجز رأيه فى هذا الفصل أن فطرة الطفل نقية ، خلية من الشر ومن الخير على السواء .

٢ — ثم يقول بعد ذلك بثلاث صفحات « اعلم أن الله سبحانه ركب فى طبائع البشر الخير والشر ، كما قال تعالى : « وهديناه النجدين » ، وقال : « فألهمها فجورها وتقواها » . والشر أقرب الخلال إلى الإنسان إذا أُهْمِل فى مرعى عاداته ، ولم يهذبه الاقتداء بالدين ، وذلك شأن الأكثرين إلا من عصم الله ووفقه . ومن أخلاق البشر الظلم والعدوان ، فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه امتدت يده إلى أخذه ، إلا أن يصده وازع ، كما قيل :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم[٣]

---

(١) قواعد المنهج فى علم الاجتماع ٣٦

(٢) المقدمة ١٠٣ (٣) المقدمة ١٠٧

فهو هنا يقرر أن الانسان بفطرته أقرب إلى الشر نزّاع إليه ما لم يهذب بردع حاكم أو زجر وازع أو تأثير دين .

٣ — ثم يقول إن الإنسان أقرب إلى خلال الخير بأصل فطرته ، وقوته الناطقة العاقلة ، لأن الشر إنما جاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه ، وأما من حيث إنه إنسان فهو إلى الخير وخلاله أقرب [١] .

وهو هنا يرى أن الإنسان أميل إلى الخير بطبعه .

تعليق :

من التعسف أن نحاول التوفيق بين هـــذه الآراء ، لأنها متعارضة متناقضة .

والحق إن الطفل يولد كالصفحة البيضاء ، لم يسطر فيها خير ولا شر ، ولكنه مستعد لهما جميعاً ، قال تعالى « وهديناه النجدين » أي هديناه إلى طريق الخير والشر . وقال « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » وقال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة ، وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

وهذا ما يقره العلم ، لأن الطفل يستهل على العالم وله غرائزه ونزعاته وميوله ، وكلها قابلة للتشكل والتأثر .

وذلك أيضاً ما رآه الغزالي ، فقد قال : « كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، والصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعاً . وبالاعتياد والتعلم تكتسب الرذائل . والصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة لكل ما نُقش ، فإن عُوِّد

الخير وعُلِّمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة ، وإن عُوِّد الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك » .

ولقد هدم روسو رأى المربين فى عصره ، والدينيين فى دهره ، الذين ذهبوا إلى أن الطفل شرير بطبعه ، وأن المربى هو الذى يرشده إلى الخير ويُجَنِّبه الشر ، فقرر فى مطلع كتابه (إميل) « أن الله لا يخلق إلا الجميل الخيِّر ، والبديع الشَّيِّر ، وقد خلق الطفل جميلا نقيا ، فصيره الإنسان دميما زريا . ومن قوله نعلم أنه يعتقد الخير فى الفطرة ، ويجد الشر عارضاً عليها ودخيلا .

الذوق اللغوى

١ — يقول إن كلمة الذوق يتداولها الدارسون لفنون البيان ، ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان ، ويشرح ذلك ، فنفهم من شرحه أن الذوق اللغوى هو القدرة على إيراد الكلام مطابقا لمقتضى الحال ، وأنه القدرة على تمييز جيد الكلام من رديئه ، وبليغه من ركيكه « فإن سمع تركيبا غير جارٍ على ذلك المنحى مجَّه ، ونبا عنه سمعه بأدنى فكر بل بغير فكر ، إلا بما استفاده من حصول هذه الملكة ، لأن الملكات إذا استقرت ورسخت فى محالِّها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل . ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب فى لغتهم إعرابا وبلاغة أمر طبيعى ، ويقول كانت العرب تنطق بالطبع . وليس كذلك ، وإنما هى ملكة لسانية فى نظم الكلام تمكنت ورسخت ، فظهرت فى بادىء الأمر أنها جبلة وطبع » .

— ويشرح تربية الذوق بأن ملكته تحصل بممارسة الكلام العربى

وتكرره على السمع ، والتفطن لخواص تركيبه ، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية التى استنبطها أهل صناعة اللسان ، لأن هذه القوانين تفيد علماً بذلك اللسان ، ولا تفيد حصول الملكة .

٣ — ويقرر أن الذوق أمر وجدانى ، غير خاضع لقوانين ، فلقد يستطرف الإنسان شيئا ، ثم يعجز عن بسط الأدلة على استطرافه ، وإذا عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم فى نظم كلامهم أعرض عنه ومجه ، وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم ، وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك ، كما يصنع أهل القوانين النحوية والبيانية ، فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المستفادة بالاستقراء ، وهذا أمر وجدانى حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم »[1]

تعليق :

ذهب ابن خلدون إلى أن الذوق يكتسب بالسماع والمرانة ، ولكن علم النفس الحديث يقرر أنه استعداد فطرى مكتسب ، فهو موهبة فطرية طبيعية منحها الله كل إنسان ، ولكن للتربية والتجارب شأن كبير فى تقويته[2] فالقريحة الخصبة ، والذهن الصافى ، والخيال المنطلق ، والميل إلى براعة التعبير كلها صفات موروثة ، ثم يأتى التهذيب والتعليم والفرص المواتية فينمو الذوق ويسمو .

ويتفق علم النفس مع ابن خلدون فى أن الوجدان أهم عنصر من عناصر الذوق ، وأن للبيئة والتربية أثراً قويا فى نموه ، وأن الأدب أعظم مواد

---

(١) المقدمة ٤٩٥ ، ٤٨٨ ، ٤٩٣

(٢) فى علم النفس ٣٤٧/٣

الدراسة أثراً فى تربيته ، على أن تكون نماذجه مختارة متدرجة مع السن ، مشروحة شرحا يكشف عن جمالها وروعتها . ثم يحاكيها المتعلم فيما ينظم أو يكتب[١] . ثم تستقل شخصيته بعد ذلك .

الإيحـــاء

تكلم ابن خلدون فى علم الطب ، ثم قرر أن الطب المنقول فى الشرعيات ليس من الوحى ، وإنما هو على غرار طب البادية ، المستند إلى التجارب ، المعتمد على الأعم الأكثر . ثم قال إن الطب الوارد فى الأحاديث النبوية ليس مشروعا ، ولكنه يشفى إذا كان الباعث على المعالجة به التبرك وصدق النية ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم إنما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعرينا الطب »[٢]

ومن الإيحاء أيضا التأثير بالهمة من غير آلة ولا معين ، وهذا ماتسميه الفلاسفة السحر ، ونوع قائم على التأثير بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمى الطلسمات ، ونوع يؤثر بالتصرف فى الخيال ويوحى إليه بالصور المقصودة ، فينظر الراءون كأنها فى الخارج ، ولاشىء من ذلك ، وهذه هى الشعوذة ، ومن هذه التأثيرات النفسية الإصابة بالعين[٣]

تعليق

١ — بنى ابن خلدون نجاح العلاج أحيانا على التبرك وصدق النية ، وهذا ضرب من الإيحاء ، لا شك فى أنه يشفى الأمراض الجسمية والنفسية

---

(١) فى علم النفس ٣/٣٥٩ (٢) المقدمة ٤١٤ (٣) المقدمة ٤١٦-٤٢٢

أحيانا ، وكثير من العلماء النفسيين يعالجون الآن بالإيحاء . يقول العلامة مكدوجل « إن الإيحاء وسيلة لنشر الآراء والمعتقدات » ، وهذا حق ، لأن فى كل منا ميلا فطريا إلى تصديق ما يسمع ، ولكن هذا الميل يختلف تبعا لقدرة الموحِي ومكانته فى النفس ، وتبعا لنفسية الموحَى إليه .

وإن الإنسان ليكون أسرع تأثرا بالإيحاء إذا جاءه من جهة جديرة بالطاعة كالمدرس والطالب ، والطبيب والمريض ، والشخص ونفسه ، فالذى يوحى إلى نفسه أن صحته معتلة سرعان مايحس بالتعب ، والذى يوحى إلى نفسه أنه مريض كثيرا ما يمرض .

وفى أوربا اليوم علاج يعتمد على الإيحاء ، فإن مئات الألوف يحجون إلى مدينة (لورد) كل سنة ، وهى مدينة صغيرة فى الجنوب الغربى من فرنسا ، بها ينبوع مياه معدنية ، زعموا أن العذراء مريم ظهرت لإحدى فتياتها فى سنة ١٨٥٨ واسمها (برنارت سوبروس) ، فلما قصت قصتها على الناس أنشئوا بتلك المدينة كنيسة للعذراء أصبحت كعبة المرضى ، وأقبل عليها الناس بالنذور يبتغون الشفاء . وقديما اشتهر ابن سينا بالعلاج النفسى .

٢ — ومن عجب أن يدلل ابن خلدون على وقوع السحر بأدلة ، منها أن النبى سُحِر ، وإن كان قد ذهب إلى هذا بعض المفسرين ، لكنهم لم يصيبوا فى تفسير الآية الكريمة « ومن شر النفاثات فى العقد » . ثم أورد حوادث شاهدها بنفسه ، منها أن بالمغرب صنفا من منتحلى هذه الصناعة يسمون البعّاجين ، كانوا يشيرون إلى الكساء أو الجلد فيتمزق ، ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبعج وتتخرّق . والعلم لا ينكر السحر ، على أنه خفة فى الحركة ، ومهارة فى ستر العمل ، أو انتفاع بخصائص المواد ، أو التمويه ،

وهو ضرب من الشعوذة . أما السحر على أنه تأثير فى العالم وتوجيه للقوى ، فالعلم ينكره .

أما العين التى تستحسن المرئى وتفرط فى استحسانه ، وتتمنى سلب الحسن من مكانه ، فتؤثر فيه بالفساد ، فهى إن صحت نوع من الإيحاء . لكن ابن خلدون عزا إليها أكثر مما لها ، ونقل قولهم « القاتل بالسحر أو بالكرامة يقتل ، والقاتل بالعين لا يقتل » (١) .

التعلّم طبيعة

يرى أن التعلم طبيعة فى الإنسان ، لأنه امتاز من الحيوان بالفكر الذى هداه إلى الاجتماع والتعاون ، ومن ينبوع هذا الفكر تتفجر عيون العلوم والصناعات ، وينشأ الباعث إلى الاستزادة من المعرفة ، بالرجوع إلى السابقين فى العلم ، المتفوقين فى المعرفة (٢)

تعليق

حقا إن العلم والصناعة من آثار الاجتماع ، وإن غريزة الاستطلاع وحب المعرفة تظهر فى سؤال الصغار للكبار ، والاطلاع على تجارب من سلفوا . ولا تقف غريزة الاستطلاع عند هـــذا المحيط الذى رسمه ابن خلدون ، بل تجوزه إلى آفاق أخرى ، فهى التى تأخذ بالإنسان إلى تعرف ما يحيط به ، واختباره وفحصه ، والسؤال عنه ، والحكم عليه ، ومن هنا تنبت الفلسفة كما يقول مكدوجل . وهذه الغريزة هى بذور الفحص والبحث كما يقول وودورث (٣)

---

(١) المقدمة ٤٢٢ (٢) المقدمة ٣٦٠ (٣) فى علم النفس ١ / ١٠٢

الأحـــلام

١ — يرى أن فى الإنسان روحا عاقلا يدرك جميع ما فى العالم ، لأن الإدراك حقيقته وذاته ، فهو نفحة من الله ، وقبس كاشف ، لا يتقيد بزمان ولا مكان ، ولكن حبسه فى البدن ضرب حوله نطاقا من المادة ، فحد إدراكه بحدودها ، فلم يتطلع إلى ما وراء سجنه ، ولم يدرك إلا ما أمامه ، ولم ير إلا ما يقع لديه ويحدث ، فالروح لا تستشرف الغيب ؛ لأن الجسم كبلها وقيدها .

ولكن الجسم وحواسه تضعف فى النوم ، فتنتهز الروح هذه الفرصة ، وتلوذ بعالمها الفسيح ، وتتجرد عن البدن قليلا ، وهنا تدرك من عالم الغيب لمحة ، على قدر تجردها وحريتها ، ثم تلقى ما أدركت إلى الخيال ، ليصوره بالصورة المناسبة له ، ويدفعه إلى الحس ، فيراه النائم كأنه محس ، وبذا يتنزل المدرك من الروح إلى الحس على جناح الخيال .

ويرى أن الرؤيا وأضغاث الأحلام تتفقان فى أن كليهما صور فى الخيال فى أثناء النوم ، وتختلفان فى أن الرؤيا صور خيالية منزلة من الروح ، أما الأضغاث فصور أودعها الخيال فى الحافظة منذ اليقظة [١] .

٢ — وللرؤيا علم تعبير وتفسير ، ذلك بأن الرؤيا ثلاثة أنواع : رؤيا من الله ، ورؤيا من الملك ، ورؤيا من الشيطان . فالرؤيا التى من الله هى الصريحة التى لا تفتقر إلى تأويل ، والتى من الملك هى الصادقة التى تفتقر إلى تعبير ، والتى من الشيطان هى الأضغاث .

---

(١) المقدمة ٣٩٨

وحين يلقى الروح إلى الخيال ما أدرك فإنما يصوره فى قوالب قد أدركها الإنسان إدراكا حسيا من قبل ، لذلك لا يصور خيالُ الأعمى السلطانَ بالبحر ، ولا العدو بالحية ، ولا النساء بالأوانى ، لأنه لم يدرك شيئا من هذه ، وإنما يصور له خيالُه بالمسموعات والمشمومات . وعلم التعبير علم بقوانين كلية يبنى عليها المعبرون ما يُقَصُّ عليهم ويؤولونه ، فيقولون إن البحر يدل على السلطان ، ويدل أيضا على الغيظ أو الهم أو الأمر الفادح . ويقولون إن الحية تدل على العدو ، وعلى الحياة وأمثال ذلك . فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ، ويعبر فى كل موضع بما يلائمه وبما توحى به القرائن . وتلك القرائن بعضها فى اليقظة ، وبعضها فى النوم ، وبعضها ينقدح فى نفس المعبر بخاصية فيه وهبة له (١) .

تعليق :

يتبين مما سبق أن ابن خلدون روحانى ، لأن بعض الأحلام فى رأيه ينبىء عن المستقبل ، ويقبس من الغيب ، أما بعضها الآخر فنابع من الحافظة ، وهذا لا يكشف عن غيب ، لأنه يعيد إلى الذاكرة أحداثا مرت .

وهو فى مذهبه الروحانى يتبع ما ذكره الكندى مختصرا من كتاب أرسطو وأفلاطون وسائر الفلاسفة أن النفس — حتى وهى فى البدن — تتجاوز فى المعرفة حدود البدن الضيقة ، كما تتجاوز حدود العالم المحسوس ، فتعلم الحقائق والأسرار ، وذلك إذا تجرد صاحبها من الماديات ، وتفرغ للنظر والبحث ، فإذا ما فارقت البدن انكشفت لها جميع الحقائق ، وهى عند نوم الحواس ترى العجائب ، وتتصل بالأرواح ، وتَعْبُر إلى عالم الحق فترى

(١) المقدمة ٤٠٠

عجائب من الأحلام ، وتتصل بالأنفس التى فارقت الأبدان ، ويفيض عليها البارى من نوره ورحمته . وليست كل نفس تفارق البدن تستطيع أن تصل إلى هذه الرتبة ؛ لأن من الأنفس مافيه دنس (١)

وكذلك الغزالى آمن بأن وراء الحس إلهاما ، وآمن بالأحلام الغيبية ، ورأى أن الصفاء الروحى وسيلة لإدراك بعض الغيب ، وأن وراء العقل طورا آخر تفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون فى المستقبل ، وأمورا أخرى العقل معزول عنها كعزل قوة التميز عن إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التميز . وليست الوسيلة إلى هذا الإدراك من طريق الدليل والقياس أو المنطق ، لأن مبناه الذوق والوجدان (٢)

وهذا الرأى يخالف ما ذهب إليه الماديون من مدرسة العلامة فرويد وغيره ، إذ ينكرون الرؤيا الغيبية ، ويعتبرون الأحلام كلها استرجاعا لحوادث مرت — النوع الشيطانى فى نظر ابن خلدون — ، أو تنفيسا عن أمانى استترت منذ الطفولة أو اختزنت منذ الكبر فى العقل الباطن، فكبتت أو قُمعت ، مرغمة على الانتقال من الشعور إلى العقل الباطن ، واللياذ بحماه ، لأنها لا تلائم المجتمع ، ولا توائم آدابه ، أو لايستريح الشخص لذكرها ، فتبقى مغلوبة على أمرها ، محجوبة عن ظهورها ، ثم تنضم إليها رغبات أخرى مكبوتات مثلها ، مشبهة لها ، وكلما همت بالظهور صدها الرقيب ، وما الرقيب إلا الوعى . ولكن الوعى لا بد له أن يغفل حين النوم مثلا ، فيضعف عن احتجاز الرغبات الباطنة ، فتتسلل لواذا ، ولقد تتستر وتتنكر وتتحلل غير حقيقتها ، وتبرز إلى اليقظة فى لباس غير لباسها . يقول فرويد

---

(١) رسائل الكندى الفلسفية ٢٧١ - ٢٨٠ (٢) الإحياء ٣ / ١١-٢٢

« إن الأحلام مجموعة رموز يشير كل منها إلى رغبة من الرغبات المكبوتة ».

وعلى الجملة فالأحلام فى نظر المحدثين من علماء النفس .

١ — تمثيلية تعيد حوادث وقعت

٢ — تنفيسية ترضى رغبة مقهورة

٣ — غيبية ، تنبىء بما سيكون

والعلماء فى هذا النوع الأخير على مذاهب :

بعضهم يرى مارآه الكندى وابن خلدون ، وهم الروحانيون ، وبعضهم يرى أنها ناشئة عن استنباط العقل الباطن ، ويسمى هذا التعليل الاستنباطى ، وهو أقرب إلى مذهب المحدثين المعارضين للمذهب الروحانى . وبعضهم يرى أنها نوع من الإيحاء ، ويسمى هذا التعليل الإيحائى (١)

وبعد فإننى أومن برأى ابن خلدون فى الأحلام الغيبية ، ولا أرتاب فى أحاديث القلب ، وأحاسيس الروح ، وأجدنى فى الأيام التى أتسامى فيها بروحى أحلم الحلم فقل أن يشرد ، ولقد عودنى حُلْمى ألا يخدع ، ولقد أرى الرؤيا والصبح يتنفس ، فأصحو على ثقة منها ويقين ، فأقصها على صديق فيتندر ، ولكنها بعد قليل تتحقق وتظهر .

وفى الغرب والشرق علماء يدينون بالمذهب الروحانى ، ويروجون له ، بل يستحضر بعضهم الأرواح .

ولست مع ابن خلدون فى تقسيمه الرؤيا إلى إلهية وملكية وشيطانية ، وأوثر تقسيمها إلى تمثيلية وتنفيسية وغيبية كما سبق

---

(١) فى علم النفس ٢/٢٦٥ والعقل الباطن تأليف سادلر . ترجمة عباس حافظ

مكانة الأدبية

عصره السياسى والأدبى

الحالة السياسية

أطلق العرب على شمالى إفريقية مما يلى مصر إلى المحيط الأطلسى (بلاد المغرب) ، فشملت هذه الكلمة إقليم إفريقية، أى المغرب الأدنى (طرابلس وتونس) ، أو المغرب الأوسط ، والمغرب الأقصى ، وسمى هذا القسمان أيضاً بر العدوة ، لأنهما معبر إلى الأندلس .

وأطلق العرب على سكان شمالى إفريقية كلمة (بربر) ، وكان هذا اللفظ يطلق على غير العرب ، وقيل إن أصله من كلمة بارفاروس اليونانية ، ومعناها صوت الألثغ ، وقد أطلقه اليونان على كل من لم يتكلم لغتهم ، ثم أطلقه الرومان على كل من ليس يونانيا أو رومانيا [1]، كما أطلق العرب على كل من ليس عربيا كلمة أعجمى ، لعجزه عن التكلم بالعربية .

وقد فتح المسلمون بلاد البربر فى خلافة عثمان بن عفان سنة ٢٦ هـ ، ثم توسعوا فى خلافة معاوية . وحكمها ولاة من بنى أمية ومن بنى العباس ، ثم نشأت هناك دول مستقلة كالأغالبة (١٨٤ — ٢٩٦ هـ) والعبيديين أو العلويين (٢٩٦ — ٣٦١ هـ) والصنهاجيين بتونس (٣١٦ — ٣٤٢ هـ) والأدارسة (١٦٩ — ٣١٣ هـ) والموحدين (٥١٤ — ٦٦١ هـ) .

---

(١) محاضرات فى الأدب العربى ١٩١ للدكتور أحمد ضيف .

فلما انهارت دعائم دولة الموحدين خلفتها دويلات وإمارات عدة ، فقامت فى تونس دولة بنى حفص ، وفى تلمسان والمغرب الأوسط دولة بنى عبدالواد ، وفى فاس والمغرب الأقصى دولة بنى مَرين ، وقامت إمارات صغيرة فى بعض الثغور بعضها يستظل بدولة من هذه ، وبعضها خارج مستقل .

وكان بنو مَرين أقوى جيرانهم ، وقد غزا عميدهم ومؤسس دولتهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الأندلسَ مرات ، وتوفى ٦٨٥هـ - ١٢٨٦م وكان على عرش فاس فى حياة ابن خلدون السلطان أبو الحسن ، ولى الملك ٧٣١ هـ — ١٣٣٠م ، وقد غزا جبل طارق ، ثم زحف على المغرب الأوسط حتى استولى على تلمسان قاعدة ملك بنى عبد الواد ٧٣٧ هـ وبذلك امتدت دولة بنى مرين شرقا حتى إفريقية (تونس) . ثم استولى أبو الحسن ٧٤٨هـ على تونس ، واسترد الحفصيون ملكهم ٧٥٠ هـ لكن المولى الفضـــل ابن سهل الحفصى لم يكد يسترد ملك أسرته حتى خرج عليه الوزير أبو محمد عبد الله بن تفراجين ، وانتزع منه العرش ، وأقام فيه أخاه الطفل أبا إسحق ابن يحيى الحفصى فى كفالته وإمرته ، وذلك فى أوائل ٧٥١ هـ .

وفى سنة ٧٥٣ هـ زحف أمير قسنطينة أبو زيد حفيد السلطان يحيى الحفصى فى قواته على تونس، ليسترد ملك أسرته من قبضة الوزير المغتصب ابن تفراجين . وكان ابن خلدون فى حاشية أبى زيد، وهزم أبو زيد ، فانسل ابن خلدون من المعسكر ناجيا ، ثم عزم أبو عنان بن أبى الحسن ملك المغرب الأقصى على فتح المغرب الأوسط ، واستعادة تلمسان التى افتتحها أبوه ، ثم استعادها منه بنو عبد الواد ، فزحف عليها سنة ٧٥٣هـ وامتلكها،

وقتل ملكها أبا سعيد ، ثم دخلت بجاية فى طاعته . وكان ابن خلدون فى بِسْكرِه بعد فراره من المعسكر، فسعى إلى لقاء أبى عنان بتلمسان ، فأكرمه بما لم يكن يحتسب [١] .

لقد كان منتصف القرن الثامن للهجرة مزعزعا بالثورات والانقلابات وتتابع الدولات ، وكانت الإمارات الصغيرة تتعاقب فى القواعد والثغور الوسطى ، مثل بجاية وبونة وتلمسان وغيرها ، وتنشب لامتلاكها حروب متلاحقة .

وفى هـــذا الوقت نفسه كانت قصور السلاطين والأمراء مسرحا للمنافسات والدسائس ، ومطمح أنظار الطامعين فى الزلفى ، والطامحين إلى انتزاع السلطان ، حتى لقد كانت الحروب والثورات تنشب فى الأسرة الواحدة .

الحالة الأدبية :

هذه لمحة عجلى عن الحالة السياسية فى بلاد المغرب ، وفى عصر ابن خلدون ، تبين أن الحروب والفتن لم تكن تهدأ ، فمن الطبيعى أن يُشْغَل الناس والعلماء والأدباء بهذا الصراع المتلاحق ، وأن يتأثر الأدب والعلم بهذا القلق والاضطراب ، وكيف يزدهر الأدب والعلم فى جو متقلب غير مأمون العاقبة ؟

على أن الملوك والأمراء كانوا ينتهزون فرص السلم على قلتها وقصرها ، فيقربون إليهم العلماء والأدباء ، وكان بنو حفص وبنو مرين ملاذ رجال

(١) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ٥٨ نشره محمد بن تاويت سنة ١٩٥١ وسأعتمد على هذا المطبوع فيما يأتى بدلا من المخطوط . وابن خلدون لمحمد عبد الله عنان ٢٤ .

الفكر والأدب ، يظاونهم برعايتهم ، ويحتفون بهم ، ويولونهم المناصب الرفيعة .

يقول ابن خلدون « ولما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان رفع من منزلة ابنَيْ الإمام : أبي زيد وأبي موسى ، واختصهما بالشورى في بلدهما ، وكان يستكثر من أهل العلم في دولته ، ويجرى لهم الأرزاق ، ويعمر بهم مجلسه . . . ثم أدنى ابن عبد النور ، وقرب مجلسه ، وولاه قضاء عسكره »[1] .

وكانت غرناطة حالية بكثير من العلماء والأدباء ، لكن الأندلس لم تتسع لعلمائها وأدبائها ، ولا سيما بعد أن طغت مملكة قشتالة النصرانية على أطراف المملكة الإسلامية ، واستولت على أكثر ثغورها وقواعدها ، فرحل كثير من علماء الأندلس وأدبائه إلى المغرب ، فأثْرَت بالثقافة والأدب في الوقت الذي زُلْزِلَتْ فيه من الحروب والفتن .

على أن الأدب لم يبلغ في المغرب ما بلغ في المشرق أو في الأندلس من نضج وسمو ، ولعل مَرَدَّ ذلك إلى أن العجمة كانت متأصلة في البربر ، وأن دولهم لم تعمر طويلا ، فترعى العلم والأدب ، بل إنها كانت لا تستقر . لذلك كان الملوك والأمراء في شغل بحروبهم عن تشجيع العلماء والأدباء ، وكان الأدباء والعلماء غير مطمئنين على حياتهم وأرزاقهم فلا ينتجون . ثم إن العرب كانوا قلة في بلاد المغرب ، ولم يكثروا كما كثروا في مصر والأندلس . ولاشك أن كثرتهم ، ونزوح قبائلهم إلى بعض البلاد المفتوحة كان يفسح المجال للغة والأدب . على أن البربر قوم شداد المراس ، أقوياء

(١) التعريف ٤٦

الشكيمة ، لُدٌّ فى عدائهم للعرب الفاتحين ، فلم تُشْرَبْ قلوبهم محبة اللغة العربية . ولقد يعزز ذلك أن ابن خلدون نفسه كثيراً ما حمل على العرب ، وتنقص من أقدارهم ، واتهمهم بتأصل الهمجية ، وبِغَضَة الحضارة . وإن كانت أحكامه هذه جائرة لا تنطبق على العرب ، وإنما تنطبق على الأعراب فى عهده .

النثر فى عصر ابن خلدون

حينما نتحدث عن النثر أو الشعر فى المغرب أو فى الأندلس لا بد من أن نتعرف حالها فى المشرق ، لأن المغاربة والأندلسيين كانوا يتتلمذون على المشارقة ، ويتأسون بهم ، ويتأثرون طرائقهم فى الكتابة والشعر ، وكان المغاربة يقتدون بالأندلسيين كما يقتدون بالمشارقة .

١ — ولا عجب فى ذلك ، فإن العرب نزحوا إلى الأندلس وانبثوا فى أرجائها ، من كل قبيلة وعشيرة ، عدنانيين وقحطانيين . فمن العدنانيين القرشيون والهاشميون الذين كانت منهم دولة بنى حمود ، ومنهم المخزوميون الذين منهم أبو بكر المخزومى الشاعر ، والوزير ابن زيدون ، ومنهم الفهريون الذين منهم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى انتزع الحكمَ منه عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس .

أما القحطانيون فكانوا أكثر انتشاراً ، ومن قبائلهم كهلان قبيلة محمد بن هانىء الشاعر ، ومنها الأزد الذين وفدوا على الأندلس جماعات ، ومن اليمنيين أيضاً الجد الأول لعبد الرحمن بن خلدون ، ونَسَبُنَا فى حضرموت من عرب اليمن إلى وائل بن حُجْر من أقيال العرب . قال ابن حزم : ويُذْكَرَ

بنو خلدون الإشبيليون من ولده ، وجدهم الداخل من الشرق خالد المعروف بخلدون بن عثمان . . . . . بن وائل بن حجر »[1] .

٢ — وقد وفد إلى الأندلس كثير من العلماء والأدباء ، فوجدوا هنالك ترحيباً وتكريماً وإغداقاً ، ففاضت ثقافتهم ، وقرضوا الشعر وكتبوا النثر ، مصورين ما يرون من مشاهد فى أسلوب عربى ، حراصاً على اللغة القومية ، معتزين بماضيها المجيد ، مقيدين بطرائق التعبير التى جرى عليها أسلافهم ، ويجرى عليها معاصروهم فى الشرق . وكان العلماء يفدون من المشرق إلى المغرب ، ويقبلون من المغرب إلى المشرق ، حتى لا يكاد الطريق يخلو من قدم تسعى للرحلة فى سبيل التعليم أو طلب العلم .

٣ — على أن الخلفاء ثم الملوك فى الأندلس كانوا يرون فى المشرق مثلا أعلى جديراً بالاحتذاء ، فمثلا قدم زِرْياب المغنى إلى الأندلس بأمر الحكم بن هشام ، وأخبر بوفاته ٢٠٦ هـ قبل أن يبلغ الأندلس ، فهمّ بالرجوع ، فجاءه كتاب من عبد الرحمن بن الحكم يستدعيه ويرحب به ، فدخل الأندلس هو وأهله وأكرمه الخليفة أيما إكرام ، وتتلمذ عليه كثير من الرجال والنساء . والحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) بعث إلى أبى الفرج الأصبهانى بألف دينار من الذهب ، ليرسل إليه نسخة من كتاب الأغانى قبل أن يظهر فى العراق .

٤ — ولقد حصرهم فى محاكاة الشرق أنهم لم يحفلوا أول الأمر بما كان لبلاد الأندلس من ثقافة لا تينية ، ولم يحفلوا بنقل شىء من فلسفة اليونان وعلومهم ، لأنهم يريدون أن تكون دولتهم عربية ، ينافسون بعروبتها

---

(١) التعريف بابن خلدون ٣

دولة العرب الفارسية فى بغداد ، حتى لقد كان الطلاب الذين يرحلون إلى المشرق ليتعلموا يكتفون بالطلب على علماء الدين واللغة ، مثل يحي بن يحي الليثى الذى رحل إلى مكة ، وأخذ الفقه عن الإمام مالك ، ومثل أبى الخطاب عمر بن الحسن الأندلسى ، فقد رحـــل إلى شمال إفريقية ومصر والشام والعراق ، وسمع ببغداد وبواسط وخراسان ، وكان همه كله مقصوراً على الأخذ عن أئمة الحديث [١] ، وقد رحل ابن مالك الأندلسى إلى دمشق وسمع الحديث والنحو واللغة بها [٢] .

وكان العلماء الذين يستقدمون من المشرق أدباء أو لغويين مثل أبى على القالى ، استقدمه الخليفة عبد الرحمن الناصر لتربية ابنه الحكم وتعليمه .

الطريقة الشائعة فى عصره

١ — كانت الطريقة الشائعة فى عصره هى طريقة القاضى الفاضل (المتوفى ٥٩٦ هـ) فقد سيطرت على كتاب مصر والأندلس والمغرب . وهى كما نعلم مؤسسة على طريقة ابن العميد ، وتزيد عليها المبالغة فى الزينة ، من سجع ملتزم ، أكثره متكلف ، فى جمل طوال ، وتورية ، وجناس ، وطباق ، وتوجيه ، واقتباس ، وتضمين . وقد اعتسف هذه المحسنات فى نثره وفى شعره . وكان تلاميذه والمتأثرون بطريقته من بعده أقل منه اطلاعا ، وأقصر باعا ، فهبطوا بتكلفهم هبوطاً شنيعا . وربما سولت لبعضهم نفسه أن يَبُزَّ طريقة القاضى الفاضل بحشد البديع ، واستكراه الحِلَى اللفظية ، فحمّلوا نثرهم أثقالا ليست من اللآلئ بل من القواقع ، وتحت هذه الأثقال لفظت الأفكار أنفاسها ، وناءت الأساليب بضعفها .

---

(١) وفيات الأعيان ١ / ٤٨٢ (٢) نفح الطيب ١ / ٤٢٧

وكان الدافع إلى ذلك سيطرة غريزة التقليد على الكتاب ، وظنهم أن طريقة القاضى الفاضل أسمى ما انتهت إليه أقلام المنشئين ، ثم إنهم كانوا فقراء فى الثقافة عامة والفلسفة خاصة ، فلا تختلج فى نفوسهم معان سامية ، وأفكار راقية ، فعمدوا إلى تمويه هذا الضعف بستار وطلاء من الزخرف ، وربما حفزهم إلى ذلك أيضا أن نقاد هذا العصر كانوا كلفين بالطريقة الفاضلية ، لا ينال إعجابهم غيرها ، فخضع الكتاب للنقاد ، وجاروهم فى إعجابهم ، وأنشئوا على الغرار الذى يرتضونه ، ولسنا ننتظر من كتاب هذا العصر أن يخرجوا على نقاده ، ويثوروا على الطريقة العقيمة التى يكلفونهم احتذاءها ، لأن عصور الضعف لا تجود بعبقرى إلا نادرا . وقد كان هذا العبقرى الجرىء ابن خلدون .

ومن أمثلة نثر القاضى الفاضل ما كتبه لتولية قائد من أرباب السيوف على لسان السلطان : « أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يصطنع من يرتضيه لتأليف عبيده وضمهم ، ويستوقفه للنظر فى تقديم رجال مملكته وزمهم ، ويختار من يجتبيه لإحراز مدحهم ، بالبعد من موجبات ذمهم ، ولا يؤهل لذلك إلا من توسل بالغناء ، وتقرب ، واستقل بالأعباء وتدرب ، وأطلق حده التوفيق فمضى وتذرب ، وأودع الإحسان فما زايل محله ولا تغرب ، ولابس الأمور ملابسة من فطن وجرب ، وقد أيد الله دولته بفتاه وأمينه ، وعقده وثمينه ، السيد الأجل الذى غدت آراؤه للمصالح كوافل ، وأذكى للتدبير عيون حزم غير ملتفتات عنه ولا غوافل ، وأطلع من السعد نجوما غير غوارب ولا أوافل ، وقام بفرائض النصائح قيام من لم يجوز فيها رخص

النوافل ، وتحدثت بأفعاله رماحه فى المحافل ، فما راعت الجحافل ... »[1]

وفى هذ المثال — الذى لم أتخيره — سجع ملتزم ، وجمل غير منسجمة ، فبعضها طويل وبعضها قصير ، وجناس (ضمهم ، وزمهم ، وذمهم) و (تدرب ، وتذرب ، وتغرب) واستخدام للمصطلحات (رخص النوافل) .

٢ — وقد جرى فى مضمار هذه الطريقة لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ — ٧٧٦ هـ) وإذا كانت طريقة ابن العميد قد استمدت نفوذها فى الشرق والغرب من مكانته السياسية وولايته الوزارة ، ثم إذا كانت طريقة الفاضل قد ذاعت وسيطرت على الكتاب من بعده ؛ لأنه كان وزيراً لصلاح الدين ونائبا عنه فى غيابه ، فإن لسان الدين بن الخطيب كان وزيراً لبنى الأحمر ، وصاحب سلطان عظيم ، ومكانة رفيعة استمدها من الوزارة ومن علمه واطلاعه .

وأدبه لا يختلف عن أدب ابن العميد والقاضى الفاضل ، بل يزيد أنه حافل بالسجع ، وبالإطناب ، وبالتطويل فى أكثر الأحيان إلى درجة تبعث الملل ، كأن مقياس الجودة فى نظره الإكثار ، ولا شك أن الإطالة أشد إضجاراً من السجع المتكلف ، فإذا اجتمعا معا فقد تضافرا على الإملال ، وربما كان الباعث له على الإطناب رغبته فى تكرير المعنى الواحد فى عبارات شتى كما كان يفعل القاضى الفاضل .

على أن كتابته مثقلة بالحلى اللفظية ، وبألقاب التعظيم والتبجيل .

وهو فى كثير من رسائله يَدُوف الشعر بالنثر ، كقوله فى تعزية بعض الرؤساء عن أخيه :

---

(١) صبح الأعشى ١٠/٢٦٠

أيا ثابت كن فى الشدائد ثابتا ... أعيذك أن يُلْفَى حسودك شامتا
عزاؤك عن عبد العزيز هو الذى ... يليق بعـــزّ منك أعجز ناعتا
فدوحتك الْغَنّاء طالت ذوائبا ... وسَرْحتك الشماء طابت منابتا
لقد هَدّ أركانَ الوجود مُصابه ... وأنطق منه الشجوُ من كان صامتا
هو الموت للإنسان فَصْلُ لحدّه ... وكيف ترجّى أن تصاحب مائتا
وللصّبْرِ أولى أن يكون رجوعنا ... إذا لم نكن بالحزن نرجع فائتا

واتصل بى أيها الهمام ، وبدر المجد الذى لا يفارقه التمام ، ما جنته على عليائك الأيام ، واقتضته مِحَن الردى بعد أن طال الخيام[1] ، وما استأثرت به الحِمام ، فلم يُغْن الدفاع ولا نفع الذّمام ، من وفاة صِنْوك الكريم الصفات ، وهلال وُسطى الأسلاك ، وبدر الأحْلاك ، ومجير الأملاك ، وأنا لَديْخ صِلِّ الفراق ، الذى لا يفيق بألف راق ، وجريح سهم البين ، ومُجارى العيون الجارية بدمع العين ، لفقد أنيس سهّل علىّ مضض النكبة ، ونحّى ليثَ الخَطْب عن فريستى بعد صدق الْوَثْبَة ، وآنسنى فى الاغتراب ، وصحبنى إلى منقطع التراب ، وكفل أصاغرى خير الكفالة ، وعاملنى من حسن العشرة بما سجل عقد الوكالة . انتزعه الدهر من يدى حيث لا أهل ولا وطن ، والاغتراب قد ألقى بعَطَن ، وذات اليد يعلم حالها من يعلم ما ظهر وما بطن ، ورأيت من تطارح الأصاغر على شِلو الغريب ، النازح عن النسيب والقريب ، ماحملنى على أن جعلت البيت له ضريحا ، ومدفنا صريحا ،

---

(١) خيم بالمكان : أقام ، والخيام : جمع خيمة ، ومصدر خام أى نكص وجبن ، ولعله يريد هذا المعنى الأخير وهو أن الموت اختطف المتوفى بعد تردد

لأخدع من يرى أنه لم يزل مقيما لديه ، وأن ظل شفقته منسحب عليه ، فأعيا مصابى عند ذلك الفرح ، وأعظم الظمأ البرح ، ونكا القَرْحَ القُرَح ، إذا كان ركناً قد بنته لى يد معرفتك ، ومتّصفاً فى البرّ بكريم صفتك ، فوا لهفا عليه من حسام ، وعز سام ، وأياد جسام ، وشهرة بين حام وسام ، أىّ جمال خَلْق ، ووجه للقاصد طلق ، وشيم تطمح للمعالى بحق .

ذهبت إلى الجزع فرأيت مصابه أكبر ، ودعوت بالصبر فولى وأدبر ، واستنجدت الدمع فغضب . واستصرخت البكاء فأنكر ماروى واقتضب ، وهى الأيام أى شامخ لم تهده ، أو حديد لم تبله وإن طالت المدة ، فرقت بين التيجان والمفارق ، والخدود والنمارق ، والطُّلَى والعقود ، والكأس وابنة العنقود . . . . فأنا يا سيدى أقيم رسم التعزية ، وإن بؤت بمضاعف المَرْزِيَة ، ولا عتب على القدر ، فى الوِرْد من الأمر والصَّدَر .

وأنا وإن أخرت فرض بيعتك لما خصنى من المصاب ، ونالنى من الأوصاب ، ونزل بى من جور الزمان الغَصّاب ، ممن يَقْبَل عُذْرَه الكرم ، ويسعه الحرَم المحترم . والله سبحانه الكفيل لسيدى وعمادى ببقاء يكفل به الأبناء وأبناء الأبناء ، ويعلى لقومه رتب العز سامية البناء ... »[1]

ومن رسائله إلى ابن خلدون رداً على رسالة منه ، وقد قرب من غرناطة :

حللتَ حلول الغيث فى البلد المحل ... على الطائر الميمون والرحب والسهل
يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه ... من الشيخ والطفل المهدَّأ والكهل
لقد نشأت عندى للقياك غبطة ... تُنَسّى اغتباطى بالشبيبة والأهل

(١) نفح الطيب ٤/١٣٩

أقسمت بمن حجت قريش لبيته ، وقبر صُرفَتْ أزمة الأحياء لميته ، ونورضُرِبَتْ الأمثال بمشكاته وزيته ، لو خُيِّرتُ أيها الحبيب الذى زيارته الأمنية السنية ، والعارفة الوارفة ، واللطيفة المُطيفة ، بين رَجْع الشباب يَقْطُر ماء ، ويرِف نماء ، ويغازل عيون الكواكب ، فضلا عن الكواعب ، إشارة وإيحاء ، بحيث لا الوخط يلم بسياج لِمَّته ، أو يقدح ذُبالةً فى ظلمته .. وزمانُه رَوْح وراح ، ومَغْدى فى النعيم ومَراح ، وقَصْفٌ صُراح ، ورُقى وجراح ، وانتحاب وافتراح ، وصدور ما بها إلا انشراح ، ومسرات تَرْدُفها أفراح ، وبين قدومك خليع الرَّسَن ، مُمَتَّعاً والحمدلله باليقظة والوسَن ، ممتعا بظرف المعارف ، مالئاً أكف الصيارف ، ماحياً بأنوار البراهين شُبه الزخارف ، لما اخترتُ الشبابَ وإن راقنى زمنه ، وأعيانى ثمنه ، وأَجَدَّت سحائبَ دمعى دِمَنه ، فالحمد لله الذى رَقَّى جنون اغترابى ، وملَّكنى أزمَّة آرابى ، وغبطنى بمائى وترابى ، ومألف أترابى . . . ، [1] .

فى هذين النموذجين طابع لسان الدين بن الخطيب ، من سجع مستكره ، وجمل بعضها طويل ليمهد للسجعة ، وبعضها قصير لأن السجعة واتت ، وإطالة عملة بتكرير المعنى الواحد فى قوالب من الألفاظ لا فضل للاحقها على سابقها ، ومحسنات بديعية ، وتفاهة فى أكثر المعانى ، وضعف فى الخيال مثل (قدومك خليع الرسن) مثل (رقى جنون اغترابى) .

ولقد أعجب معاصروه بطريقته ، فتصدر زعامة الأدباء فى عصره ، فأرَّخ المقَّرى له ولأساتذته وتلاميذه تأريخا مفصلا فى كتابه ، بل سماه (نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب) ، وقال فى مقدمة الجزء الرابع إنه (فى إيراد جملة من نثره الذى

---

(١) نفح الطيب ٤/٧ والتعريف ٨٢ .

عَبق أريج البلاغة من نفحاته ، ونظمه الذى تألق نور البراعة من لمحاته وصفاته ، وما يتصل به من أزجاله وموشحاته ... وها أنا أذكر ما حضرنى الآن من بنات أفكار لسان الدين ، التى هى بالمحاسن متقنعة ، وللبدائع منتعلة ، فأقول : أما نثره فهو البحر الزَّخّار ، بل الدر الذى به الافتخار ، وناهيك أن كتبه الآن فى المغرب قبلة أرباب الإنشاء التى إليها يُصَلّون ، وسوق دُررهم النفيسة التى يزينون بها صدور طروسهم ويحلون ... »[١]

والحق إن أدب لسان الدين شعرا ونثرا لا يبلغان من الجودة إلى الحد الذى بوأه المكانة الأدبية الرفيعة فى عصره . ولعل الوزارة والسياسة والرياسة كان لها أثرها فى هذه المكانة .

على أنه كتب فى موضوعات علمية وتاريخية ، وأسلوبه فيها أحيانا مرسل ، وأحيانا أسلوب مسجوع مطوّل ، كأن قدر الكتابة كان يقاس فى نظره بالإكثار لا بالإجادة . ومن أسلوبه المرسل ما جاء فى ترجمته لابن خلدون : « وأما المترجَم فهو رجل فاضل ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، باهر الخصال ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، وقور المجلس ، خاصِّى الزى ، عالى الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوى الجأش ، طامح لقُنن الرياسة ، حاطب للحظ ، متقدم فى فنون عقليه ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الخط مُغرًى بالتجلة ، جواد ، حسن العشرة ، مبذول المشاركة ... »[٢]

---

(١) نفح الطيب ٤ / ٢

(٢) نفح الطيب ٤ / ٦

صلة ابن خلدون بلسان الدين

أسلفت في أول الكتاب أن لسان الدين بن الخطيب كتب في (الإحاطة) ترجمة مفصلة لابن خلدون ، وقال إنه شرع في هذه الأيام يشرح أرجازى في الفقه شرحا بارعا لا غاية بعده . وقد نقل المقّرى هذه الترجمة كاملة في كتابه نفح الطيب [١] .

وقد ذكر لسان الدين في (الإحاطة) بضعة رسائل بعث بها إلى صديقه ابن خلدون ، وذكر ابن خلدون في (التعريف) بضعة رسائل بينه وبين ابن الخطيب [٢] .

وكان ابن خلدون معجبا بصديقه ، مشهورا بالثناء عليه ، يدل على ذلك قول المقرى « وكان ابن خلدون كثير الثناء على لسان الدين بن الخطيب ، ولقد رأيت بخط العالم الشهير الشيخ إبراهيم الباعونى الشامى . . . « وكنت أكثر الاجتماع به — ابن خلدون — بالقاهرة المحروسة ، للمودة الحاصلة بيني وبينه ، وكان يكثر من ذكر لسان الدين بن الخطيب ، ويورد من نظمه ونثره مايشنف به الأسماع ، وينعقد على استحسانه الإجماع ، وتتقاصر عن إدراكه الأطماع » [٣] .

ويقول ابن خلدون « ومن محاسن الموشحات للمتأخرين موشحة ابن سهل ، وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبدالله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لعصره » [٤]

---

(١) نفح الطيب ٤ / ٦ - ١٧

(٢) التعريف ٨٢ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٣ ، ١١٥ ، ١٢٣ ، ١٢٨

(٣) نفح الطيب ٤ / ١٧ (٤) المقدمة ٥٢٥

ويذكر ابن خلدون فى التعريف صلته بلسان الدين ، فقد كتب إليه لسان الدين لما فر من الأندلس وقدم على سلطان تِلِمْسان [١] ، ورد عليه ابن خلدون ردا ينبىء عن مودة وإعزاز [٢] ، ويقول فى موضع آخر « وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله فى النظم والنثر والمعارف والأدب ، لا يُساجَل مداه ، ولا يُهْتَدى بمثل هداه [٣]

ويقول إن ابن الخطيب بعث إليه من محبسه مستصرخا ومتوسلا ، فخاطب فى شأنه أهل الدولة ، فلم تنجح وساطته [٤] .

ويقول إنه شكا إليه تخلفه فى الشعر [٥]

دراسته الأدبية

(١) تحدث ابن خلدون عن دراسته كما سبق فى أول الكتاب ، وعرفنا أنه قرأ القرآن الكريم على إمام فى القراءات السبع ، وبعد أن استظهر القرآن الكريم قرأه على أستاذه بالقراءات السبع إفراداً وجمعا فى إحدى وعشرين ختمة . . وقرأ قصيدتى الشاطبى : اللامية فى القراءات والرائية فى الرسم ، وكتاب التَّقَصِّى لأحاديث الموطأ لابن عبد البر ، ودرس عليه كتبا جمة ، مثل كتاب التسهيل لابن مالك ، ومختصر ابن الحاجب فى الفقه ، وفى خلال ذلك تعلم صناعة العربية على والده ، وعلى علماء تونس ، وحفظ كتاب الأشعار الستة ، والحماسة للأعلم الشنتمرى ، وشعر أبى تمام ، وشعر

---

(١) التعريف ١٣٩ (٢) التعريف ١٤٠
(٣) التعريف ١٥٥ (٤) التعريف ٢٢٧
(٥) المقدمة ٥١٠

المتنبي ، وكثيراً من أشعار الأغانى . ثم درس الحديث والفقـــه والعلوم العقلية إلخ [١]

٢ — وهو يبصرنا بدراسته وتمكنه من اللغة والأدب ، حين يتحدث فى المقدمة عن تعليم اللغة الفصحى ، وضرورة التطبيق فى القواعد [٢] ، والحاجة إلى حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف ، وما خلف العرب من رائع الشعر والنثر ، ثم حين يتحدث عن الذوق ، وعن منهج التعليم فى البلاد الإسلامية ، الخ كما سبق فى منهج التعليم ونظمه .

٣ — على أن الفصول القيمة التى قصرها على دراسة العلوم اللسانية ثرية بآرائه ونظراته ، دالة على بصره بنشأة هذه العلوم وتطورها ، ومعرفته بأمهات مراجعها ، وأشهر المؤلفين فيها ، فمثلا يتحدث فى علم النحو عن الخليل وسيبويه وابن مالك والزمخشرى وابن الحاجب وابن هشام [٣] ، ويتحدث فى علم اللغة عن الخليل والزبيدى والزمخشرى والثعالبى وابن السكيت وثعلب [٤] ، ويتحدث فى علم البيان عن جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة والسكاكى ، والقزوينى ، ويقرر أن المشارقة فى علوم البلاغة أنضج من المغاربة ، لأنهم أوفر عمرانا من المغاربة ، ولأن العجم فى المشرق قد أسهموا فى إنضاج البلاغة كالزمخشرى فى تفسيره ، ثم يقرر أن المغاربة عنوا بالبديع خاصة ، لولوعهم بتزيين الألفاظ ، ولسهولة البديع ، وحاجة البيان والبلاغة إلى دقة النظر . ثم يذكر ابن رشيق مؤلف العمدة [٥] .

ويتحدث فى علم الأدب عن أدب الكاتب لابن قتيبة ، والكامل للمبرد ،

---

(١) التعريف ١٥ — ٥٥ (٢) المقدمة ٤٨٩ و ٤٩٤ (٣) المقدمة ٤٨٣
(٤) المقدمة ٤٨٤ (٥) المقدمة ٤٨٧

والبيان والتبيين للجاحظ ، والنوادر لأبى على القالى ، ويقول إننا سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول الأدب وأركانه هذه الكتب الأربعة ، وماسواها فَتَبَعٌ لها ، وفروع عنها (١) . وفى موضوع آخر يتحدث عن كتاب الأغانى (٢) وعن العمدة لابن رشيق (٣) ثم يتحدث بعد ذلك عن اللغة الفصحى والمرانة عليها ، وعن الذوق ، وعن الشعر والنثر حديثاً ينم على بصر واطلاع .

١ ما السبيل إلى إجادة اللغة والأدب فى رأيه ؟

١ — رأى أن لغة الحديث فى عصره غير الفصحى ، وأن الطريقة إلى تعلم اللغة الفصحى حفظ النصوص البليغة ، وهى القرآن الكريم والحديث الشريف ، وما أثر عن البلغاء من شعر وكتب وخطب ، سواء أكانوا قدماء أم مولدين . وبكثرة المحفوظ ، تنشأ الملكة ، فيصير الشخص كأنه نشأ بين العرب الفصحاء ، ثم ينميها بالتعبير عما يجد فى نفسه من الأفكار ، وهو كلما مرّن قلمه رسخت ملكته (٤) .

وفى رأيه كما سبق أن دراسة النحو مجرداً من التطبيق ومن الأدب لا تجدى (٥)

وقرر أنه لابد من الذوق لمن يطمح إلى أن يكون أديباً ، ويفهم من شرحه للذوق أنه الملكة التى رسخت بحفظ كلام العرب وممارسته ، وتكرره على السمع ، والفطنة لخواص تراكيبه ، حتى إن صاحب الذوق

---

(١) المقدمة ٤٨٨ (٢) المقدمة ٥٠٥ (٣) المقدمة ٥٠٥
(٤) المقدمة ٤٩٣ (٥) المقدمة ٤٩٤

إذا عرض عليه كلام خارج على الأسلوب العربي مجه ، وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك ، لأن الذوق أمر وجداني .

« واستعير لهذه الملكة عند ما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان ، وهو موضوع لإدراك الطعوم ، لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام ، كما هو محل لإدراك الطعوم ، استعير لها اسمه ، وأيضاً فهو وجداني للسان كما أن الطعوم محسوسة له ، فقيل له ذوق »[١] . ويرى أن الأعاجم الذين طرءوا على اللغة العربية كالفرس والروم والترك بالمشرق ، وكالبربر بالمغرب لا يحصل لهم هذا الذوق ، لقصور حظهم في الملكة اللسانية العربية ، إلا إذا كان مربأهم بين العرب الفصحاء كالزمخشري وسيبويه والفارسي[٢] .

٢ — وقسم الكلام العربي إلى شعر ونثر ، وعاب العروضيين في تعريف الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى ، وعرفه بأنه الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروى ، المستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله ، والجاري على أساليب العرب المخصوصة به[٣] .

وبهذا التعريف للشعر أدخل في أركانه الخيال ، وأخرج من الشعر الكلام الموزون المقفى الذي لا عاطفة فيه ولا خيال . أما النثر فهو كلام غير موزون ولا مقفى[٤] .

وكل منهما يشتمل على فنون ومذاهب في القول ، فالشعر يشتمل على

---

(١) المقدمة ٤٩٦ (٢) المقدمة ٤٩٧
(٣) المقدمة ٥٠٤ (٤) المقدمة ٤٩٩

الهجاء والمدح الخ ، والنثر بعضه مسجوع ، وبعضه مرسل ، والقرآن خارج عن الوصفين . ثم تكلم عن اختصاص الشعر بأنواع من فنون القول كالنسيب ، وعن اختصاص النثر بأنواع كالخطب [١] .

ثم تحدث عن طريقة تعلم الشعر ، والظروف المهيئة لقرضه ، وعن تنقيحه ، ونقده [٢] . ونقل قصيدة لابن رشيق ، وشعراً لغيره فى الوصاة بالطريقة إلى ممارسته .

وذكر أن الشعر غير مقصور على اللسان العربى ، فقد كان فى الفرس شعراء ، وفى اليونان شعراء ، ذكرمنهم أرسطو فى كتاب المنطق أو ميروس الشاعر وأثنى عليه [٣] . وذكر كثيراً من قصائد المتأخرين ، ومن الموشحات والأزجال .

نثر ابن خلدون

موضوعاته

وصل إلينا من مؤلفات ابن خلدون كتاب العبر ، ومقدمته ، وكتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، وبه بعض رسائل له .

أما المقدمة فقد تحدثت عن بعض موضوعاتها فيما سبق ، وهى كلها بحوث فى علم الاجتماع وفلسفة التاريخ ، وأحوال الأمم من حضارة وبداوة ، وفى العلوم ونشأتها وأطوارها الخ . وقد اهتدى إلى كثير من علل الأحداث التى تنتاب المجتمعات ، وعرف ما بينها من التشابه والترابط ، فوضع لها

---

(١) المقدمة ٥٠٠ (٢) المقدمة ٥٠٥ (٣) المقدمة ٥١٢

قوانين عامة ، وأقيسة مطردة ، لم يفطن لها بهذه الصورة الكاملة أحد من قبله ، بل لم يتبين صدقها ، وتتكشف قيمتها إلا بعده بعدة قرون .

وأما التاريخ فقد تناول فيه تاريخ العرب فى الجاهلية والإسلام ، وبعض أمم المشرق ، وأفاض فى تاريخ البربر فى شمالى إفريقية ، وغارات أعراب المشرق من سليم وجشم ورياح وهلال وزغبة على دولتى صنهاجة ، وأطراف ممالك الموحدين . وسلك فى هذا التاريخ خطة مغايرة لخطة الطبرى وابن الأثير وابن مسكويه ، فبوب كتابه حسب الحوادث والدول لا حسب السنين ، على أن بعض المؤرخين سبقوه إلى هذه الطريقة ، كالمسعودى فى كتابه مروج الذهب وكتابه التنبيه والإشراف ، واليعقوبى فى تاريخه ، وابن الطقطقى فى كتابه الفخرى وكتابه الآداب السلطانية .

وأما التعريف بابن خلدون فهو قصة حياته إلى قبيل وفاته بعام واحد ، ذكر فيه أصله وأحداث أسرته ، وأحداثه هو ، وثقافته ، وأساتذته ، وتحدث عن صلته بملوك المغرب وأمرائه ، وتقلبه فى قصور تونس وبجاية وتلمسان وفاس ، وعن اعتقاله وتشريده ، ثم عن رحلته إلى الأندلس ، واتصاله بملك غرناطة ووزيره لسان الدين بن الخطيب ، وسفارته إلى ملك قشتالة ، وعن الجفوة التى عرضت بينه وبين ملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب ، ثم عن عودته إلى تونس ، ثم رحلته إلى مصر وحياته فيها ، حتى سنة ٨٠٧ هـ .

خصائصه :

— ترسّل فى كتابته فى عصر كان يترسم طريقة ابن العميد والقاضى الفاضل ، وكان حامل لواء هذه الطريقة فى الأندلس لسان الدين

ابن الخطيب ، وكان ابن خلدون صديقا له ومعجبا به . فليس بغريب أن ينشأ ابن خلدون على هذه الطريقة ، وأن يترسمها حينا من شبابه ، حتى اكتملت ملكته ، وتميزت شخصيته ، فظهر له أنها لا تصلح فى الرسائل السلطانية ، وإن جرى معاصروه عليها ، فعدل عنها إلى النثر المرسل ، كما كان يكتب البلغاء الأولون ، كابن المقفع وأحمد بن يوسف والجاحظ ، وقد عاب طريقة معاصريه بقوله : « وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المنثور . من كثرة الأسجاع ، والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين يدى الأغراض، وصار هذا المنثور — إذا تأملته — من باب الشعر وفنه، ولم يفترقا إلا فى الوزن ، واستمر المتأخرون من الكتاب على هـــذه الطريقة ، واستعملوها فى المخاطبات السلطانية ، وقصروا الاستعمال فى المنثور كله على هذا الفن الذى ارتضوه ، وخلطوا الأساليب فيه ، وهجروا المرسل وتناسوه، وخصوصاً أهل المشرق ، وصارت المخاطبات السلطانية لهـــذا العهد عند الكتاب الفضل جارية على هذا الأسلوب ، وهو غير صواب من جهة البلاغة ؛ لما يلاحظ فى تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطِب والمخاطَب، وهذا الفن المنثور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر ، فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه ، إذ أساليب الشعر تنافيها اللوذعية ، وخلط الجد بالهزل ، أو الإطناب فى الأوصاف ، وضرب الأمثال ، وكثرة التشبيهات والاستعارات . وجلال الملك والسلطان ، وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافى ذلك ، ويباينه . والمحمود فى المخاطبات السلطانية الترسل ، وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا فى الأقل النادر ، وحيث ترسل الملكة إرسالا ، من غير تكلف له ، ثم إعطاء

الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال ، فإن المقامات مختلفة ، ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة أو كناية أو استعارة . . . وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم ، وقصورهم عن إعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل ، لبعد أمده فى البلاغة ، وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية ، ويغفلون عما سوى ذلك . . . »[١] .

فهو إذاً يرى أن النثر المسجوع المحلى بالبديع لا يلائم الرسائل السلطانية ، ويستدل على ذلك بأنه لا يطابق مقتضى الحال ، ويعلل لذلك بأن الكتاب عجزة عن تحقيق البلاغة ، فيحاولون ستر عجزهم بزخارف من البديع . وقد حقق الترسل فى نثره السلطانى ، وفى كل ما كتب .

يقول عندما كتب للسلطان أبى سالم المرينى : «واستعملنى فى كتابة سره ، والترسيل عنه والإنشاء لمخاطباته ، وكان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل ، بدون أن يشاركنى أحد ممن ينتحل الكتابة فى الأسجاع ، لضعف انتحالها ، وخفاء العالى منها على أكثر الناس ، بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ ، وكان مستغربا عندهم بين أهل الصناعة »[٢]

٢ — وفى قليل من الأحيان كان يسجع مثل كتاب عصره ، وذلك حين يكتب لهم ، يريد بذلك مجاملتهم ومشاركتهم فى طريقتهم التى يؤثرون ، ويريد

---

(١) المقدمة ٥٠٠

(٢) التعريف ٧٠

أن يظهر قدرته على مزاولته مايزاولون . ولكنه مع هذا اقتصد فى سجعه ، ولم يتكلف البديع ولاسيما التورية والتوجيه كما تكلفهما لسان الدين وغيره .

من ذلك قوله فى رسالته إلى لسان الدين : يا سيدى ، ونعم الذخر الأبدى ، والعروة الوُثْقى التى اعتلَقَتْها يدى ، أسلم عليكم سلام القُدوم ، على المخدوم ، والخضوع للملك المتبوع . لا بل أحييكم تحية المشوق ، للمعشوق ، والمدلج ، للصباح المتبلِّج ، وأقرر ما أنتم أعْلَم بصحيح عَقْدى فيه من حبى لكم ، ومعرفتى بمقداركم ، وذهابى إلى أبعد الغايات فى تعظيمكم والثناء عليكم ، والإشادة فى الآفاق بمناقبكم ، دَيْدناً معروفاً وسجية راسخة ، يعلم الله وكفى به شهيداً . . . فلا تظنوا بى الظنون ، ولا تصـــدقوا فىّ التوهمات ، فأنا من علمتم صداقةً ، وسذاجةً ، وخلوصاً واتفاقَ ظاهر وباطن ، أثبتُ الناس عهداً ، وأحفظهم غيبا ، وأعرفهم بوزن الإخوان ، ومزايا الفضلاء . . . فحمدتُ الله لكم على الخلاص من ورطة الدول ، على أحسن الوجوه ، وأجمل المخارج ، الحميدة العواقب فى الدنيا والدين ، العائدة الأيام ، بحسن المآل ، فى المَخَّلف من أهل وولد ومتاع وأثر ، بعد أن رضتم جموح الأيام وتوقّلتم قلل العز ، وقدتم الدنيا بحذافيرها ، وأخذتم بآفاق السماء على أهلها . والله يُلحفكم جميعاً رداء العافية والستر ، ويحفظ عليكم ما أسبغ من نعمته ، ويجريكم على عوائد لطفه وعنايته .[1]

ومن ذلك قوله فى افتتاح المقدمة : الحمد لله الذى له العزة والجبروت ، وبيده الملك والملكوت ، وله الأسماء الحسنى والنعوت ، العالم فلا يعزب عنه ماتظهره النجوى أويخفيه السكوت ، القادر فلا يعجزه شىء فى السموات

(١) التعريف ١٤٠ — ١٤٧

والأرض ولا يقوت ، أنشأنا من الأرض نَسَما ، واستعمرنا فيها أجيالا وأمما ، ويسّر لنا منها أرزاقا وقسما »[1] لكنه بعد هذه الخطبة عاد إلى الترسل فى المقدمة كلها .

٣ — يتسم أسلوبه فى الغالب بالجزالة والقوة ، وبخاصة إذا صدر عن عاطفة ، أو كان دفاعا عن فكرة ، من ذلك قوله فى الدفاع عن العباسة وهارون الرشيد ، ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة فى سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحي ابن خالد مولاه ، وأن العباسة تحيلت عليه فى التماس الخلوة به ، لما شغفها من حبه ، حتى واقعها فى حالة سكر ، فحملت ، ووُشِيَ بذلك للرشيد ، فاستغضب . وهيهات ذلك من منصب العباسة فى دينها وأبويها وجلالها ، وأنها بنت عبدالله بن عباس ، ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال ، هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده ، والعباسة بنت محمد المهدى بن عبد الله بن أبى جعفر المنصور بن محمد السجاد بن على أبى الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ، ابنة خليفة ، أخت خليفة ، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية ، وصحبة الرسول وعمومته ، وإقامة الملة ونور الوحى ، ومهبط الملائكة من سائر جهاتها ، قريبة عهد ببداوة العروبية وسذاجة الدين ، البعيدة عن عوائد الترف ، ومراتع الفحش فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ؟ أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدا من بيتها ؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحي ، وتدنس شرفها العرب بمولى من موالى العجم ؟ أبملكة جده من الفرس ؟ أم بولاء جدها من عمومة

---

(١) المقدمة ٢

الرسول وأشراف قريش ؟ وكيف يسوغ من الرشيد أن يصير إلى موالى الأعاجم ، على بعد همته ، وعظم آبائه ؟ ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف ، وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها ، وفى سلطان قومها ، واستنكره ، ولج فى تكذيبه . وأين قدر العباسة والرشيد من الناس ؟ وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجانهم أموال الجباية . . . »[1]

٤ — وهو يؤثر الترسل الخالى من الجزالة حين يشرح قضية علمية لا عاطفة تزجيها ، ولا حماسة تلابسها ، مثل قوله : « الملك منصب طبيعى للإنسان ، لأنا قد بينا أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم إلا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضروراتهم ، وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات ، ومد كل واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه ، لما فى الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان ، ويمانعه الآخر عنها بمقتضى الغضب والأنفة ، ومقتضى القوة البشرية ، فيقع التنازع المفضى إلى المقاتلة ، وهى تؤدى إلى الهرج وسفك الدماء وإذهاب النفوس . . . فاستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض ، واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع ، وهو الحاكم عليهم »[2]

٥ — وإليه يرجع الفضل فى وضع كثير من المصطلحات التى جرت على الأقلام والألسن من بعده ، مثل : العمران البشرى ، الاجتماع الإنسانى ، العمران البدوى ، الأمم الوحشية ، الملكة ، الغاية التى تجرى إليها العصبية الملك . المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب . الخدمة ليست من المعاش الطبيعى ، الخ .

(١) المقدمة ١٢ (٢) المقدمة ١٥٦

٦ — على أن اللغة واتته ، وخضعت له ، فطوعها للتعبير عن الأفكار والمعاني الدقيقة ، في أصول الاجتماع . وآثار البيئة في الجسم والعقل والخلق ، وأحوال الحضر والبدو ، وقيام الدول وقوتها ، وضعفها وسقوطها الخ . كقوله : إن الدولة المستجدة إنما تستولى على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة [١] وقوله : إن المتمولين من أهل الأمصار في حاجة إلى الجاه والمدافعة [٢] . وقوله : إن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره ، وإنها مؤذنة بفساده [٣] . وقوله : إن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية [٤] .

٧ — وكان أحيانا يخالف قوانين الصرف ، ويخرج على اللغة ، مثل إدخال الواو في خبر لا ، فيقول : لا بد وأن . وجعله الخبر أو جواب الشرط استثناء أو استدراكا ، مثل : إنه وإن كان كذا إلا أنه أو لكنه . واستعماله الفعل تعود متعديا بعلى . ومثل استعماله كلمة الجيل كثيراً للدلالة على القرن أو الجنس من الناس ، وهو في اللغة الطبقة المتعاصرة في حقبة واحدة ، واستعماله المنحال إسم آلة لرفع الأجسام ، وجمعه العصبية على عصائب ، والصناعة على صنائع ، وكلمة تفننوا بمعنى افتنّوا .

٨ — وأحيانا يطيل الجملة ، ويداخل فيها جملا أخر ، حتى يلتبس المعنى ، ويصلح الأسلوب لتأويلات شتى ، وأحيانا يكرر كلمات خاصة لا داعي لتكريرها ، مثل قوله : « وقد كان لأول هذه المائة خرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعى التّوْبَذى — في بعض النسخ التّوْزَرى نسبة إلى مدينة توزر في جنوبي تونس — عمد إلى مسجد ماسة بساحل البحر هنالك ،

---

(١) المقدمة ٢٥٠ (٢) المقدمة ٣٠٩
(٣) المقدمة ٣١٢ (٤) المقدمة ٣١٩

وزعم أنه الفاطمى المنتظر ، تلبيساً على العامة هنالك . بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره هنالك »[١] فكرر كلمة هنالك ثلاث مرات .

ومثل قوله : « إن عصابة الدولة وقومها القائمين بها المهدين لها لا بد من توزيعهم حصصاً على الممالك والثغور التى تصير إليهم ، ويستولون عليها لحمايتها من العدو ، وإمضاء أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك ، فإذا توزعت العصائب كلها على الثغور والممالك فلا بد من نفاد عددها . . . وما كانت العصابة موفورة ، ولم ينفد عددها فى توزيع الحصص على الثغور والنواحى بقى فى الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية ، حتى ينفسح نطاقها إلى غايته ، والعلة الطبيعية فى ذلك هى أن قوة العصبية من سائر القوى الطبيعية ، وكل قوة يصدر عنها فعل من الأفعال فشأنها ذلك فى فعلها »[٢] .

ولقد يكون مردُّ ما فى أسلوبه من هنات ، وما فيه من تداخل إلى نشأته البربرية ، وإلى أن اللغة كانت فى عهده غير قوية ، سواء فى الأندلس أم فى المغرب . وقد سبق أنه ذهب إلى أن الملكة الأولى للأعاجم تحول بينهم وبين إجادة الفصحى ، إلا إذا نشئوا فى بيئة تأخذ نفسها بالفصاحة وسلامة العبارة .

أثره فيمن بعده

أسلفت أن طريقة ابن خلدون فى البحث ومعالجة الموضوعات قد انتقلت إلى تلميذه المقريزى (٨٤٥هـ) ، وقد ظهر هذا الأثر فى أسلوبه وتفكيره وطريقة عرضه لما يتناول فى كتبه الكثيرة ، وكان المقريزى معجبا

---

(١) المقدمة ١٣٤ (٢) المقدمة ١٣٥

بابن خلدون ومقدمته ، ورأى أنها مبتكرة لم تسبق ، ولم تجد العقول بمثلها ، كما أسفلت فى حياة ابن خلدون [١] .

وقد تتلمذ عليه وتأثر بآرائه الحافظ بن حجر العسقلانى المحدث والمؤرخ (٨٥٢هـ) . وتأثر بآرائه السخاوى ، وظهر تأثره فى عدة فصول من كتابه (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) .

ونحا القلقشندى (٨٢١هـ) نحوه ، ونقل عنه فصولا فى كتابه صبح الأعشى . ثم اعتمد كثير من العلماء والمؤرخين للحركة العلمية والأدبية على مقدمة ابن خلدون .

وفى مطلع العصر الحديث كان أثر مقدمة ابن خلدون عظيما فى النثر العربى ، لأن أسلوبها كان قدوة الكتاب فى الأدب والسياسة والاجتماع ، وقد حببه إليهم ترسله ، وطواعيته ، وخلوه من تكلف السجع والبديع ، ومرونته وإتساعه للتعبير عن المعانى التى تجول بالنفس ، وللترجمة من اللغات الأخرى . ومن الإنصاف أن نذكر أن كتاب كليلة ودمنة لابن المقنع كان له نصيب أيضاً .

ومنذ نصف قرن تقريبا بدأت المطابع تكثر من طبع الكتب اللغوية والأدبية ، وأقبل المثقفون على اقتنائها وقراءتها ، فشاركت مقدمة ابن خلدون فى تأثيرها ، وتعاونت كلها على السمو بالعبارة ، إلى حد أن كثيراً من كتاب العصر الحاضر لا يقلون بلاغة عن أمراء البيان فى العصر العباسى الأول .

---

(١) الضوء اللامع للسخاوى ٤/١٤٥

شعره

مارس ابن خلدون الشعر كما مارس الكتابة، يقول: «ثم أخذت نفسي بالشعر، فانثال عليّ منه بحور، توسطت بين الإجادة والقصور»[1] فهو يحس أن شعره لم يبلغ الجودة، ويحار فى تعليل ذلك فيقول «ذاكرت يوما صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالأندلس من بنى الأحمر، وكان الصدر المقدم فى الشعر والكتابة، فقلت له: أجد استصعابا عليّ فى نظم الشعر مع رمته، مع بصرى به، وحفظى للجيد من الكلام، من القرآن والحديث، وفنون من كلام العرب، وإن كان محفوظى قليلا. وإنما أُتيتُ والله أعلم من قِبَل ما حصل فى حفظى من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية، فإنى حفظت قصيدتى الشاطبى الكبرى والصغرى فى القراءات، وتدارست كتابَىْ ابن الحاجب فى الفقه والأصول، وجمل الخونجى فى المنطق، وبعض كتاب التسهيل، وكثيراً من قوانين التعليم فى المجالس، فامتلأ محفوظى من ذلك، وخدش وجه الملكة التى استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب، فعاق القريحة عن بلوغها. فنظر إلىّ ساعة معجبا، ثم قال: لله أنت، وهل يقول هذا إلا مثلك؟»[2] على أن لسان الدين يقول فى نثر ابن خلدون وشعره: «وأما نثره وسلطانياته السجعية فخليج بلاغة، ورياض فنون، ومعادن إبداع، يفرغ عنها يراعه الجرىء شبيهة البدامات بالخواتم فى نداوة الحروف، وقرب العهد بجراية المداد، ونفوذ أمر القريحة، واسترسال الطبع. وأما نظمه فنهض

---

(١) التعريف ٧٠ (٢) المقدمة ٥١٠

لهذا العهد قُدُما فى ميدان الشعر ونقده باعتبار أساليبه ، فانثال عليه جوه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة . ثم ذكر خمس قصائد له [١] .

أغراض شعره

فى كتاب التعريف إحدى عشرة قصيدة ، فى الاستعطاف والتهنئة والمدح والاعتذار وفى مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، على أن ابن خلدون يذكر أنه أنشد السلطان أبا سالم المرينى قصائد أخرى غير القصدتين اللتين أثبتهما فى التعريف ، ولم تحضره ليثبتها [٢] . وفى نفح الطيب قصيدة لابن خلدون فى مدح عمر بن عبد الله ملك المغرب ليست فى كتاب التعريف [٣] .

خصائصه

١ — يتّسم شعره بالجزالة والقوة أحيانا ، وبالرقة والعذوبة أحيانا ، فى عصر موسوم بالضعف ، ولا شك أن هذا أثر لقراءته وحفظه رائع الشعر وجيده . فمن شعره الجزل قوله فى قصيدته التى استعطف بها السلطان ليطلقه من حبسه :

على أى حال للّيالى أعاتب ... وأىّ صروف للزمان أغالب ؟
كفى حزنا أنى على القرب نازح ... وأنى على دعوى شهودىَ غائب
وأنى على حكم الحوادث نازل ... تسالمنى طورا وطورا تحارب

وهى كما يقول طويلة تناهز مائتى بيت ، لكنه لم يذكر منها غير خمسة [٤] .

---

(١) نفح الطيب ٤ / ١١ - ١٧ (٢) التعريف ٧٦
(٣) نفح الطيب ٤ / ١٤ (٤) التعريف ٦٧

وقوله فى مدح السلطان أبى العباس بتونس :

هل غير بابك للغريب مؤمّل ... أو عن جنابك للأمانى مَعْدل ؟
هى همة بَعَثَتْ إليك على النوى ... عَزْماً كما شحذ الحسامَ الصَّيْقل
متبوّأ الدنيا ومُنْتَجَع المُنَى ... والغيث حيث العارض المتهلل
حيث الملوك الصيد والنفر الأولى ... عز الجوار لديهم والمنزل
شادوا على التقوى مبانى عزهم ... لله ما شادوا بذاك وأثّلوا
قوم أبو حفص أبٌ لهم وما ... أدراك ، والفاروق جَدٌّ أول (١)
فضل الأنامَ حديثُهم وقديمهم ... ولأنت إن فضلوا أعزُّ وأفضل
وبنوا على قُلل النجوم ووطّدوا ... وبناؤك العالى أشد وأطول (٢)

ومن شعره الرقيق العذب تغزله فى قصيدته التى ألقاها فى احتفال السلطان أبى سالم بمولد النبى صلى الله عليه وسلم سنة ٧٦٢ هـ

أسْرَفْنَ فى هجرى وفى تعذيبى ... وأطلن موقف عَبْرتى ونحيبى
وأبين يوم البين وَقْفة ساعة ... لو داع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهـــد الظاعنين وغادروا ... قلبى رهين صَبابة ووجيب
غَرَبت ركائبهم ودمعى سافح ... فشرِقْتُ بعدهم بماء غُروب
يا ناقعا بالعَتْب غُلةَ شوقهم ... رحماك فى عذلى وفى تأنيبى

---

(١) أبو حفص عمر بن الله الصنهاجى ، ويعرف بأزناج ، وعمر ، سماه ابن تومرت عمر ، كان من أوائل أصحاب ابن تومرت منشىء دولة الموحدين ، ووزر لعبد المؤمن بن على . وإليه تنسب الدولة الحفصية (العبر ٦ / ٢٧٥ والمعجب ١٢٥) .

الفاروق : ذكر ابن خلدون فى العبر (٦ / ٢٧٥) أن نسب الحفصيين ينتهى إلى عمر بن الخطاب

(٢) التعريف ٢٣٣

يستعذب الصبُّ الملامَ وإننى ماء الملام لدىَّ غير شَروب

* * *

ثم عدد معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومدحه ، ثم استغاث به :

إنى دعوتك واثقا بإجابتى يا خير مدعوٍ وخير مجيب
قصَّرتُ فى مدحى فإن يك طيِّبا فبما لذكرك من أريج الطيب
ماذا عسى يبغى المطيل وقد حوى فى مدحك القرآن كل مَطيب ؟
يا هل تبلِّغنى الليالى زَوْرَةً تدنى إلىَّ الفوزَ بالمرغوب
أمحو خطيئاتى بإخلاصى بها وأحط أوزارى وإصْر ذنوبى
فى فتية هجروا المُنَى وتعودوا إنضاء كل نجيبة ونجيب
يطوى صحائفَ ليلهم فوق الفلا ماشئتَ من خبَبٍ ومن تقريب
إن رَنَّم الحادى بذكرك رددوا أنفاس مشتاق إليك طَروب
أو غرَّد الركب الخلىُّ بطَيْبَةٍ حنُّوا لمغناها حنين النِّيب

ثم انتقل إلى عبور السلطان أبى سالم البحر ، واستيلائه على ملكه :

سائل به طامى العُباب وقد سرى تُزْجيه ريحُ العزم ذاتُ هُبوب
تهديه شُهْبُ أسِنَّةٍ وعزائم يصدعن ليل الحادث المرهوب
حتى انجلَتْ ظلم الضلال بسعيه وسطا الهدى بفريقها المغلوب
يابن الألى شادوا الخلافة بالتُّقَى واستأثروك بتاجها المعصوب
جمعوا لحفظ الدين أىَّ مناقب كَرُموا بها فى مشهد ومغيب
لله مجدك طارفا أو تالداً فلقد شهدنا منه كل عجيب
كم رهبة أو رغبة بك ، والعلا تُقْتَاد بالترغيب والترهيب

لا زلت مسروراً بأشرف دولة يبدو الهدى من أفقها المرقوب
تحيي المعالى غادياً أو رائحاً وجديدُ سعدك ضامن المطلوب

٢ — وهو بارع الوصف ، رائع التصوير ، فقد أرسل ملك السودان هدية إلى السلطان أبي سالم ، فيها زرافة ، فمدحه ابن خلدون وهنأه ، وبدأ قصيدته بغزل رقيق ثم ذكر اتصاله به ، وغبطته بالحظوة عنده ، ثم وصف الزرافة ، فذكر لونها ، وحبها لحياة الغابة ، وطول جيدها ، وقدرتها على أن تطول به ما علا ، وعجزها عن أن تنال به ما سفل ، والمشقات التي احتملتها حتى وصلت :

ورقيمةِ الأعطافِ حاليةٍ مَوْشيَّةٍ بوشائع البُرْد
وحشيَّةِ الأنساب ما أُنِسَتْ في موحش البيداء بالقُوْد
تسمو بجيد بالغٍ صُعُداً شَرَفَ الصُّروح بغير ما جَهْد
طالت رءوسَ الشامخات به ولربما قَصُرَتْ عن الوَهْد
قطعتْ إليك تنائفا وصلت إسآدَها بالنَّصِّ والوَخْد (١)
تَخْدِي على استصعابها ذُلُلاً وتبيت طوعَ القِنِّ والقِدِّ (٢)

ثم أعقب ذلك بمدح السلطان (٣) :

ويقول في وصف كتابه العبر ، وقد أهداه إلى السلطان أبي العباس :

وإليك من سِيَرِ الزمان وأهله عِبَراً يدين بفضلها من يَعْدِل
صحفا تترجم عن أحاديث الأولى غبروا فتجمل عنهم وتُفَصِّل

---

(١) تنائف : صحارى . الإسآد : الإغذاذ في السير أو سير الليل كله أو سير الليل والنهار معاً النص : حث الناقة مثلا على أن تجود بأقصى سرعتها . الوخد : سعة الخطو في المشي . (٢) القن : العبد . القد : سير تربط به الدابة

(٣) التعريف ٧٥

تُبْدِى التبايُنُ والعلاق سرَّها وثمودُ قبلهمُ وعادُ الأوَّل
والقائمون بملة الإسلام من مُضَرٍ وبربرهم إذا ما حُصِّلوا
لخَّصْتُ كُتْبَ الأولين لجمعها وأتيت أوَّلَها بما قد أغفلوا
وألنْتُ حوشىَّ الكلام كأنما شُرُدُ اللغاتِ بها لنطق ذُلَّل
أهديت منه إلى علاك جواهراً مكنونة وكواكباً لا تأفل
وجعلته لصِوان ملكك مَفْخراً يَبْأَى النديُّ بهِ ويزهو المحفِل (١)

٣ — وإذا ما استعطف واعتذر تسلل إلى القلوب بالاستمالة ، وبحسن الدفاع عن نفسه ، وتبرئة ساحته ، والتوسل بضعفه ، وذكر نعم الذى يعتذر إليه .

فقد وشى سودون نائب السلطان برقوق بين السلطان وابن خلدون ، وكان ينقم عليه عصيانه فى أحكامه القضائية ، وكان الظاهر برقوق نفسه ينقم على الفقهاء بعض فتاواهم التى أجبرهم عليها مَنْطاش أيام الفتنة ، فتوسل إليه ابن خلدون بقصيدة ، فتغافل السلطان عنه مـــدة ، ثم عاد إلى رضاه وإحسانه .

وفى قصيدة الاعتذار الطويلة ، غاية ما يقال فى استجلاب الرضا ، واستدرار العطف والصفح ، مثل قوله فى خطاب (الجوبانى) الذى سيطالع السلطان بالقصيدة .

سيدى والظنون فيك جميله وأياديك بالأمانى كفيلة
لا تَحُلْ عن جميل رأيك إنى مالىَ اليوم غيرُ رأيك حيلة

(١) التعريف ٣٤٠

واصطنعنى كما اصطنعتَ بإسدا ء يدٍ من شفاعة أو وسيلة
لا تُضيعنى فلست منك مُضيعا ذمةَ الحب والأيادى الجميلة
وأجرْنى فالخطْب عضّ بنابَيْـــه وأجرى إلى حِماى خيوله
ولو انِّى دعا بنصرىَ داع كنتَ لى خير معشر وفصيلة

ثم قوله فى مدح السلطان والإشادة بنعمائه :

العزيزُ السلطانِ والملكُ الظا هرُ فخرُ الدنيا وعز القبيلة
ومجيرُ الإسلام من كل خطب كاد زلزالُ بأسه أن يزيله
لا تقصّرْ فى جَبْر كسرى فما زا ـــت أرَجّيك للأيادى الطويلة
أنا جارٌ لكم منعتم حماه ونَهَجْتم إلى المعالى سبيله
وغريب أنْستموه على الوحـــشةِ والحزن بالرضا والسهولة
غاله الدهر فى البنين وفى الأهـــل وما كان ظنه أن يَغُوله
ورمته النوى فقيداً قد اجتا حَتْ عليه فروعَه وأصوله
فجذبتم بضَبْعه وأَلَمْتم كل ما شاءت العلا أن تنيله
ورفعتم من قدره قبل أن يشـــكو إليكم عياءه وخموله

ثم يقول فى الوشاية :

والعدا نَمّقوا أحاديث إفك كلها فى طرائق معلولة
روّجوا فى شأنى غرائب زور نَصبوها لأمرهم أحبولة
ورموا بالذى أرادوا من البهـــتان ظنا بأنها مقبولة
زعموا أننى أتيت من الأقـــوال ما لا يُظَن بى أن أقوله

كيف لى أغمطُ الحقوق وأنّى شكر نعماكم علىّ الجزيلة ؟
إن يكن ذا فقد برئت من اللـــه تعالى وخنت جهراً رسوله
طوّقونا أمر الكتاب فكانت لقداح الظنون فينا مُجيلة (١)
لا ، ورب الكتاب أنزله اللـــه على قلب مَنْ وعى تنزيله
ما رضينا بذاك فعلا ولا جئـــناه طوعا ولا اقتفينا دليله
إنما سامنا الكتابَ ظلومٌ لا يرجّى دفاعُه بالحيلة

. . . . . .

غير أنى وشى بذكرى واشٍ يتقصّى أوتارَه وذُحـــوله

. . . . . .

وأجلّ الملوك قدراً صفوح يرتجى ذنبَ دهـــره ليُقيله
فاقبلوا العذر إننا اليوم نرجو بحياة السلطان منكم قبوله
وأعينوا على الزمان غريباً يشتكى جدب عيشه ومُحوله
جاركم ، ضيفكم ، ويلُ حماكم لا يضيع الكريم يوما نزيله (٢)

٤ — وقصائده على قلتها تمتاز بالطول . فقصيدته التى يعتذر فيها للظاهر برقوق فى سبعة وستين بيتا ، وذكر من قصيدته التى قالها فى حفل السلطان أبى سالم بمولد النبى سبعة وأربعين بيتا ، وذكر من قصيدته فى تهنئته بهدية ملك السودان سبعة وثلاثين بيتا ، واستعطف السلطان أبا عنان بقصيدة قال

---

(١) يشير إلى فتوى المقريزى وابن الفرات وغيرهما بأن الملك الظاهر برقوق يجوز قتاله لأنه يستعين على قتال المسلمين بالنصارى . وكانت مؤامرة من الخارجين عليه ، فموهوا على رجال الدين وادعوا أن فى جيشه ٦٠٠ نصرانى .

(٢) التعريف ٣٣١ — ٣٣٥ .

إنها ناهزت مائتى بيت ، لكنه لم يذكر منها غير خمسة أبيات[١] ، وله مدحة للسلطان أبي العباس سلطان تونس فى مائة بيت واثنين[٢]

٥ — وبعد فإنه فى شعره كما كان فى نثره يجرى مع الفطرة ، لا يتوقّف ليقتنص لوناً من البديع ، ولا يَتَحَبَّسُ ليعبر بنوع من أنواع الألاعيب اللفظية ، وإنما يتوخى المعنى ويحرص عليه ، ويتوخى التعبير الدقيق للمعنى الذى يريده ، ثم تتعدد فى القصيدة الواحدة موضوعاتها ، وتتعدد فى كل موضوع معانيه ، ولكنه يسلسلها ويرتبها .

على أنه لا يتعمد الربط بين موضوع وموضوع ، ولا يتحايل فى الانتقال من غرض إلى غرض .

ولاشك أن هذا أثر من دراسة المنطق ، وقد أسلفت أنه نبغ فيه ، ونال جوائز الأساتذة ، وقال ابن الخطيب إنه ألف فيه كتابا . ثم إنه درس العلوم العقلية الأخرى ، فتعاونت مع المنطق على دقة تعبيره ، وانضباط تصويره ، وترتيب تفكيره .

٦ — ولكن شعره مع هذا موسوم بقلة الخيال وضُحولته ، ويظهر أن العلوم العقلية قد عدت على خياله الأدبى كما سبق فى شكواه من ذلك إلى صديقه ابن الخطيب .

وفى بعض الأبيات تضعف عبارةٌ بين عبارات قوية، مثل قوله فى مدح السلطان أبي العباس بتونس :

هذا أمير المؤمنين إمامنا فى الدين والدنيا إليه المؤئل

---

(١) التعريف ٦٧ (٢) التعريف ٢٣٣

هذا أبو العباس خـــير خليفة ... شهدت له الشيم التى لا تُجْهل
مستنصرٌ بالله فى قهر العـــدا ... وعلى إعانة ربه متوكل
فلأنت أعلى الملكين وإن غدوا ... يتسابقون إلى العلاء وأكمل
قايِسْ قديماً منكمُ بقديمهم ... فالأمر فيه واضح لا يجهل (١)

فهاتان العبارتان (وعلى إعانة ربه متوكل) و(فالأمر فيه واضح لا يجهل) نازلتان عن جو القصيدة العام .

وأحيانا يجرى فى مضمار المبالغة ، كما فى الأبيات السابقة ، ولقد يُعْتَذَرُ له بأن السلطان أبا العباس كان أقوى سلاطين المغرب ، على أن مبالغاته قليلة وغير مغرقة فى الغلو .

ومن ذلك قوله فى مدح السلطان أبى العباس :

يابن الخلائف والذين بنورهم ... نُهجت سبيلُ الحق بعد دُروس
حاط الرعيةَ بالسياسة فانضوت ... منه لأكرم مالك وسَؤوس
أسدٌ يحامى عن حمى أشباله ... حتى ضَوَوا منه لأمنع خِيس
قَسَماً بموشِىِّ البِطاح وقد غدت ... تختال زهواً فى ثياب عروس

* * *

لَبَقاك حِرزٌ للأنام وعصمة ... وحياة أرواح لنا ونفوس
ولأنت كافل ديننا بحماية ... لولاك ضُيع عهدها وتنوسى (٢)

وفى قليل جداً من عباراته سِماتُ المصطلحات العلمية ، مثل قوله فى القصيدة السابقة :

---

(١) التعريف ٢٣٦ (٢) التعريف ٢٤٢ دروس ذهاب. خيس: مسكن الأسد

والناصر الدين القويم بعزمة طَرْدُ استقامتها بغير عُكُوس

والطرد والعكس من اصطلاحات المنطق .

وفى بعضها أثارة من تعابير العلوم ، مثل قوله فى مدح الرسول :

قَصَّرْتُ فى مدحى فإن يك طيِّباً فبما لذكرك من أريج الطيب[١]

وله قالب أسلوبى يعبر به عن إعجابه كثيراً ، ذلك بأنه يكرر (لله كذا) فمثلا يقول :

لله ما شادوا هناك وأثّلوا[٢]

لله من خلق كريم فى الندى[٣]

لله منك السابق المتمهل[٤]

لله منك مؤيَّد عزماته[٥]

لله عهد الظاعنين وغادروا[٦]

لله مجدك طارفا أو تالدا[٧]

لله منى إذ تأوَّبنى[٨]

ولله منى بعد حادثة النوى[٩]

---

(١) التعريف ٧٢ (٢) التعريف ٢٣٤ (٣) التعريف ٢٣٥

(٤) التعريف ٢٣٦ (٥) التعريف ٢٣٦ (٦) التعريف ٧٠

(٧) التعريف ٧٣ (٨) التعريف ٧٥ (٩) التعريف ٨٨

obeikandl.com

الخاتمة

وبعد : فهذه صفحات من ابن خلدون العالم، المؤرخ ، الاجتماعى ، الكاتب ، الشاعر ، المبتدع فى عصر الجمود والتقليد ، المترسل فى عصر الزينة والزخرف وتكبيل المعانى بالقيود .

هذه صفحات من عالم عبقرى ، ومفكر فذ ، وأديب مجيد ، قصدتُ بجلائها أن أضع حجراً فى تمثاله ، وأن يكون لى نصيب فى التنويه بجلاله وأن توحى إلينا عبقريته بأن النبوغ لا وطن له ولا إقليم .

فليثق علماؤنا ، وأدباؤنا بأنفسهم ، وليؤمل العاملون منهم فى أن يسودوا كما ساد ، وأن يشيدوا كما شاد ، ولينظروا إلى سَبْق الغرب للشرق الآن على أنه دورة من دورات الفلك ، لا على أنه تفوق فى الاستعداد ، أو تميز فى العقل ، أو تفرد فى النبوغ ، فقديماً نقل الغرب عن الشرق ، وفى العصور الوسطى تتلمذت أوروبا على العرب ، فهل نرجِّى فى القريب أن نستعيد ما مضى ؟ هل نؤمل أن يتقدم المسلمون العالم ويتبوءوا منه موضع الإمارة والصدارة ؟ أليس من المستطاع أن ينبغ فى العالم الإسلامى أو العربى من يَفْرَغ فى تفكيره ، ويبرع فى تعبيره ، ويبتكر من الأفكار ما يبهر العالم ، ويشغل الدارسين ؟ اللهم إن هذه الآمال ميسورة التحقيق، إذا خلصت النيات ، وصحت العزمات، وصاحبها التوفيق .

المراجع

مرتبة ترتيبا هجائيا

١ — آراء أهل المدينة الفاضلة . الفارابى . نشره الدكتور فردريك ديتريسى Dr. Friedrich Dieterici.

٢ — أبجد العلوم . أبو الطيب صديق بن حسن الهندى . المطبعة الصديقية بالهند ١٢٩٥ هـ .

٣ — ابن خلدون . حياته وتراثه الفكرى . الأستاذ محمد عبد الله عنان . مطبعة دار الكتب ١٩٣٣ م

٤ — الإحاطة فى أخبار غرناطة . لسان الدين بن الخطيب . مطبعة الموسوعات ١٣١٩ هـ .

٥ — إحصاء العلوم . الفارابى . نشره الدكتور عثمان أمين . مطبعة دار الفكر العربى بمصر ١٩٤٩ م .

٦ — إخوان الصفا . الأستاذ عمر الدسوقى . مطبعة البابى الحلبى بمصر ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م .

٧ — أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض . المقرى . طبعة تونس ١٣٣٢ هـ .

٨ — إغاثة الأمة بكشف الغمة . المقريزى . نشره الدكتور مصطفى زيادة والدكتور جمال الشيال . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م .

٩ — البيان والتبيين . الجاحظ . نشره الأستاذ عبدالسلام هارون . مطبعة لجنة التأليف ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م .

١٠ — تاريخ آداب اللغة العربية فى الأندلس والدول المتتابعة . الأستاذ أحمد السكندرى بك ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م .

١١ — تاريخ التربيـــة . الأستاذ مصطفى أمين بك . مطبعة المعارف ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٥ م .

١٢ — تاريخ الفلسفة اليونانية . الأستاذ يوسف كرم . مطبعة لجنة التأليف ١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م .

١٣ — التربية فى العصور الوسطى . الأستاذ شرف الدين خطاب . مطبعة الاستقامة ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م .

١٤ — التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . مخطوط بدار الكتب ١٠٩ تاريخ . ثم رجعت إلى الكتاب المطبوع ، نشره الأستاذ محمد ابن تاويت ، مطبعة لجنة التأليف ١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م .

١٥ — التمهيد فى الرد على الملحدة المعطلة . . . الباقلانى . نشره الأستاذان محمد الخضيرى ومحمد عبد الهادى أبو ريده . مطبعة لجنة التأليف ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م .

١٦ — الجغرافيا التجارية والاقتصادية والجغرافيا البشرية . الأستاذ محمد حمدى بك .

١٧ — رسائل إخوان الصفا . طبعة بومبى .

١٨ — رسائل الكندى الفلسفية . نشرها الأستاذ محمد عبد الهادى أبوريده مطبعة الاعتماد بمصر ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م .

١٩ — رسالة السياسة . ابن سينا . من مجموع مقالات فلسفية قديمة . المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩١١ م .

٢٠ — رسالة السياسة . الفارابى . من المجموع السابق .

٢١ — رسالة مدح التجار . الجاحظ . من مجموعة رسائل للجاحظ . نشرها ساسى . مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٤ هـ .

٢٢ — سيرة ابن هشام . نشرها الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد . مطبعة حجازى بالقاهرة .

٢٣ — ضحى الإسلام . الأستاذ أحمد أمين بك . مطبعة الاعتماد بمصر ١٣٥١ هـ — ١٩٣٣ م .

٢٤ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . السخاوى . مكتبة القدسى .

٢٥ — العرب قبل الإسلام . جرجى زيدان .

٢٦ — العقل الباطن . سادلر . ترجمة الأستاذ عباس حافظ ١٩٤٦ م .

٢٧ — فلسفة ابن خلدون الاجتماعية . الدكتور طه حسين . مطبعة الاعتماد ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٥ م .

٢٨ — فوات الوفيات . ابن شاكر . المطبعة الأميرية ١٢٩٩ هـ .

٢٩ — فى التربية . الدكتور على عبد الواحد وافى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م .

٣٠ — فى علم النفس . الأستاذ حامد عبد القادر والأستاذ محمد عطية الإبراشى . المطبعة المصرية ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م .

٣١ — قواعد المنهج فى علم الاجتماع . إميل دوركهايم . ترجمة الدكتور محمود قاسم .

٣٢ — الكامل فى التاريخ . ابن الأثير . المطبعة الأميرية

٣٣ — اللؤلؤ النظيم فى روم التعلم والتعليم . زكريا الأنصارى . مطبعة الموسوعات بمصر ١٣١٩ هـ .

٣٤ — محاضرات فى تاريخ الأدب العربى . الدكتور أحمد ضيف . مطبعة العلوم بمصر ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م .

٣٥ — المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . محيى الدين بن عبد الواحد . المطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٣هـ — ١٩١٤ م .

٣٦ — مقدمة ابن خلدون . المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٤٨هـ — ١٩٣٠ م

٣٧ — مقدمة فى علم النفس الاجتماعى . دكتور شارل بلوندل . ترجمه الدكتور محمود قاسم والدكتور إبراهيم سلامة . مطبعة الفكرة بمصر

٣٨ — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . المقريزى . المطبعة الأميرية ١٢٠٧ هـ .

٣٩ — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . المقرى . المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٢ هـ .

٤٠ — وفيات الأعيان . ابن خلكان . المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠ هـ .

٤١ — De l' sprit Des lois. Montesquieu

٤٢ — The Back ground of Islam by Philby.